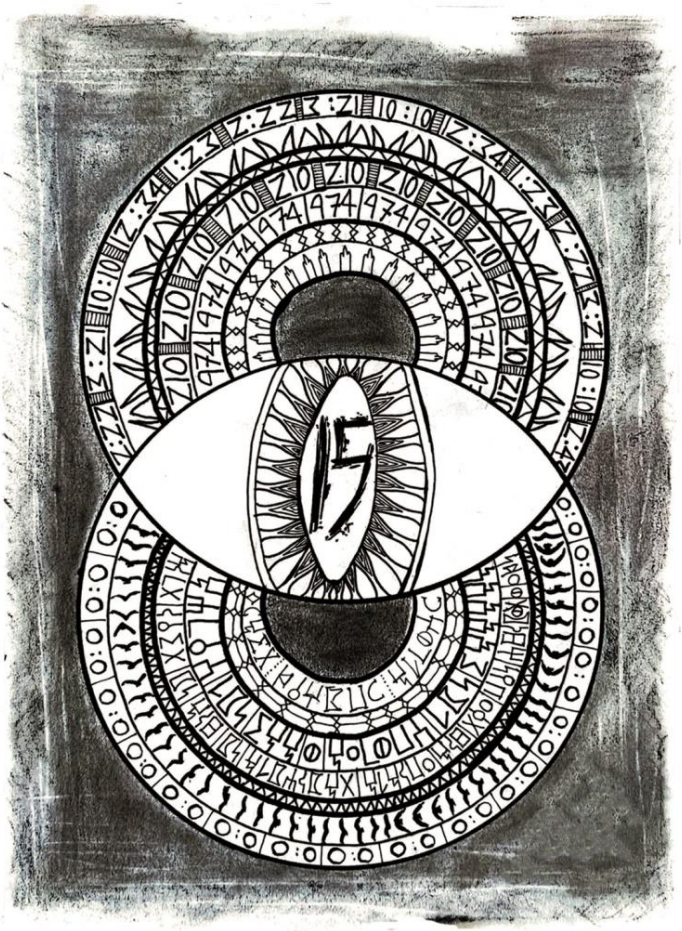
رواية

قَراشَةُ ديسَمبر

مُبارك برك بن جوهر



أريب للنشر والتوزيع
Areeb Publishing & Distribution

فراشة ديسمبر

رواية

مبارك برك بن جوهر

أريب
أريب للنشر والتوزيع
Areeb Publishing & Distribution

©جميع حقوق الطبع محفوظة.



أريب للنشر والتوزيع غير مسؤول عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

+967 739 330 777

dararreb

عنوان الكتاب: فراشة ديسمبر.

تأليف: مبارك برك بن جوهر.

(insta: mub_jo)

نوع الكتاب: رواية.

رسم لوحة الغلاف: محمد عمير.

(insta: omair_7r)

إخراج داخلي: الحذقة لخدمات ما قبل الطباعة:

(insta:fahmybook)

(whats:+96779284583)

الطبعة الأولى: 2023م/1445هـ

رقم الإيداع في دار الكتب بصنعاء: (2023/272)

عدد الصفحات: 185.

لا يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم:

(#فراشة_ديسمبر).

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

إلى تلك المرأة التائهة في ذاتها.
إلى قلبي اليتيم.
إلى مواليد ديسمبر.

مدخل

عثرت -أخيرًا- على عمل في حديقة كبير التجار بعد أن قضيت ثلاثة أعوام كاملة من التجول بشهادتي الجامعية وشهادات الدورات بين أرباب الأعمال التي توافق دراستي، ثلاثة أعوام كان الهم يعصرني فيها عصرًا حتى أيقنت بألا أمل في حصولي على عمل أستطيع فيه تطبيق ما تعلمته في الجامعة التي قضيت فيها أربع سنوات من السهر والتعب والخطيط والتنافس على المراتب الأولى التي لم تفتقدني في أي فصل جامعي ؛ إذ كنت أتصدرها أو آتي ثانيًا في أسوأ الظروف، كان عملي يقتصر على الحراسة، أي حماية ما داخل سور الحديقة من أي لص أو مخرب، أعلم أنه يختلف كليًا عن شهادتي الجامعية في التسويق، لكن لم يعد بوسعي أن أنتظر أكثر من هذه المدة التي شعرت فيها من خلال كلام عائلتي وتعاملهم معي أني أشكِّلُ عِبئًا عليهم، لا أدري هل يعلمون بمدى خيبة أملي بنفسي أم لا، أمضي الأيام الطوال التي قد تصل إلى الشهر أو الشهر ونصف أحيانًا بدون أن يمنحوني شعورهم بافتقادي أو السؤال عن حالي، حتى أني قللت من عدد مرات تواصلي الهاتفي بهم؛ فبعد أن كانت سبعة إلى ثمانية اتصالات صارت مجرد اتصال أو اثنين لا يتجاوز الواحد منهما خمس دقائق أتحدث فيها مع الجميع، لأكون صادقًا لم

يعد أمر سؤالهم عن أحوالي يشغل تفكير فقد اعتدت، ثم إن عملي في الحديقة جعلني أشعر بالكثير من السكون النفسي.

مضى عام ونصف على عملي في حديقة كبير التجار التي يحبها أكثر من غيرها من حدائقه لكونها بعيدة عن المدينة وضوضائها، ويوجد بها كل ما يسر النظر ويبهج الفؤاد من المزروعات المأكولة ومزروعات الزينة والورود، والذي زادها جمالاً صغر مساحتها مقارنة بالحدائق الأخرى القريبة من داره، وهذا الأمر سهَّل عملي كثيرًا إذ لا أحتاج بذل كثير جهد في حراستها، واليوم الوحيد الذي أحتاج أن أزيد من يقظتي فيه هو الثلاثاء من كل أسبوع؛ حيث يأتي كبير التجار من بعد العصر ويمكث في الحديقة إلى صباح اليوم التالي، يأتي بمفرده في هذا اليوم ليشعر بلذة الخلوة والتجرد من وعثاء عمله باقي أيام الأسبوع، وكان يغلق كل سبل الاتصال به حتى لا يزعجه أحد، ويطلب مني ألا أسمح لأحد بأن يقترب من الحديقة في هذا اليوم، وفي كثير من الأحيان كان يأتي ليجلس بجواري ونتحدث سوية، أخبرته في إحدى المرات أني الأول على دفعتي في تخصص التسويق وودت لو تمكنت من العمل في مجال تخصصي فابتسم لي وأخبرني أن أصبر فلعلي أعمل في إحدى شركاته ذات يوم إذا وجدت تقصيرًا من أحد المسوقين عنده.

وفي ذات ثلاثاء وجدته يخرج من سيارته ولم يكن بمفرده للمرة الأولى؛ إذ خرجت من الجهة الأخرى للسيارة فتاة ترتدي جلبابًا أسود اللون مع نقاب فضية، لديها ملامح مريحة وتبعث

الطمأنينة في النفس، كانت تشبهه إلى حد كبير فخمنت أن تكون ابنته الوحيدة التي أخبرني ذات مرة أنها بدأت عملها المستقل في صناعة الباقات والهدايا، اقتربا من مني فألقى عليَّ التحية ثم دلفا إلى الحديقة، مضت لحظات يسيرة قبل أن يطلب مني الحضور إليه.

دخلت إلى حيث يجلس برفقتها فطلب مني أن أجلس معهما ثم قال:

- ابنتي تبحث عن شخص يساعدها في صناعة خطة تسويقية ممتازة لمشروعها الذي أخبرتك عنه قبل أسبوعين ولم أجد شخصًا أنسب منك لهذه المهمة؛ فالمسوقون عندي منشغلون بدرجة كبيرة ثم إني أريد أن أجرب مهاراتك، ولعلها تكون نقطة الانطلاق لك نحو العمل بشهادتك الجامعية إذا أثبتت لي أنك تستحق.

ألجمتني المفاجأة عن القدرة على الرد؛ فقد سعدت كثيرًا بأني سأتمكن أخيرًا من تطبيق ما درسته في الجامعة، صحيح أني نسيت الشيء الكثير لكن لا يهم سأعيد استذكار كل شيء بعد أن يغادراني في الغد، هززت رأسي موافقًا والابتسامة تضيء وجهي ثم قلت له:

- سأثبت لك أني الأفضل.

- أرجو ذلك.

قال جملته وهو يستعد للنهوض ثم أضاف:

- يمكنكما أن البدء منذ الآن سأترككما الآن وأتجول في الحديقة.

- حسنًا يا أبي.

هذه المرة الأولى التي أسمع صوتها فيه، كان صوتًا مليئًا بالقوة على الرغم من رقته، ثم استقبلتني وقالت:

- سأخبرك بكل شيء عن مشروعي من أجل وضع الخطة التسويقية.

استمعت إلى حديثها عن تفاصيل مشروعها، ثم بدأت بمناقشتها في بعض النقاط التي قامت بذكرها حتى وصلنا إلى فهم شامل حول المشروع وما تعلق به، ثم قمت بتدوين ذلك كله في المذكرة التي أعطتها لي من حقيبتها وأخبرتها أني سأبدأ بالعمل الخطة منذ الغد وستكون جاهزة بحلول الثلاثاء القادم، فابتسمت لي وشكرتني ثم قامت تبحث عن أبيها فأخبرتها بأنها ستجده في الناحية الغربية بجوار شجرة البرتقال حيث يطيب له الجلوس دائمًا.

عدت إلى مكاني خارج الحديقة وبدأت بالتفكير في بعض الاحتمالات التي يمكنني الاستعانة بها عند عملي على الخطة، وقمت بكتابة بعض الأفكار التي طرأت لي حينها ثم أخرجت جوالي من جيبي وأخذت أتصفح الرسائل الأخيرة في تطبيق الواتساب الذي صرت نادرًا ما أدخل إليه في الآونة الأخيرة بعد أن قررت التخفيف منه لأتخلص من الفوضى التي يحدثها في

يومي، تنقلَّت من محادثة إلى أخرى وبدأت بحذف بعض المحادثات انزعجت منها، وفي هذه الأثناء سمعت صوتها القريب مني:

- هل يمكنك مساعدتي في تجهيز أدوات الشواء.

- سآتي في الحال.

- انتظرت حتى دخلت ثم قمت بإحضار الأدوات التي طلبتها مني وقمت بترتيبها، وبعد لحظات حضرت برفقة والدها وشكراني على المجهود الذي قمت به في إعداد المكان، فأخبرتهما أني لم أفعل شيئًا سوى واجبي ثم سألتهما إذا كانا بحاجة إلى شيء آخر حتى أقوم بإحضاره فقال لي سيدي:

اجلس معنا؛ سنشوي معًا.

(1)

عارف

- سأحرص على تحقيق حلمي الذي انتظرته طويلاً.

قلت هذه الجملة عندما خطوت أول خطوة داخل مجمع الكليات، وأنا أنظر إلى اللافتة المكتوب عليه اسم كلية الآداب، شعرت حينها بنشوة غريبة تغمرني، وقشعريرة لذيذة سرت في جسدي، ربما لأني كنت مؤمنًا بكل حرف في تلك الجملة، أو ربما لسبب آخر خفي لم أدركه حينها.

أنا عارف زكي.. سبعة وعشرون عامًا.. خريج ثانوية الصداقة الدولية قسم علمي بنسبة خمسة وتسعين بالمئة منذ عامين.. أسكن في قرية اسمها بلاد السور بجوار نهر صغير جارٍ.. فشلت في امتحان القبول لتخصص اللغة العربية سنتين على التوالي؛ لأن جميع أسئلته من كتاب النحو للصف الثالث الثانوي، وأنا أعاني من عقدة شديدة تجاه النحو؛ بسبب الأستاذ فريد الذي كان يدرسنا هذا الفرع من فروع اللغة العربية، أما الأدب فقد كنت لا أضاهى فيه، بالإضافة إلى عبقريتي في المواد العلمية طبعًا، كان حلمي الوحيد منذ المرحلة الابتدائية هو النبوغ في فن القصة؛ لذلك قررت أن ألتحق بكلية الآداب

لتحقيق هذا الحلم، وبعد عناء شديد استطعت أن أتجاوز امتحان القبول بتقدير جيد وتخلصت من كابوسه.

دلفت إلى الكلية بمظهري المتواضع جدًا منبهرًا بكل ما وقعت عليه عيناي، طريقة تصميم الباحة جعلتني أقف مدة من الزمن أتأملها، التفصيل كانت مختارة بعناية فائقة، وقعت في حب المكان منذ الوهلة الأولى، واصلت المشي وشققت طريقي ما بين الشباب الذين يقفون في الباحة، واتجهت نحو مكتب قسم اللغة العربية من أجل الاستفسار عن القاعة التي يفترض بي التواجد فيها، دخلت المكتب فوجدت رجلاً يبدو في الأربعينات من عمره، ملامحه جامدة، أصفر البشرة، لديه لحية مقصوصة بشكل جميل تشوبها بعض الشعيرات البيضاء، متوسط الطول، جسمه متناسق، يرتدي سراويل جينز سوداء، وقميص كركمي طويل الأكمام، كان يقف بجوار برَّادة الماء، وبيده كأس شفاف يشرب منه، ولفت انتباهي الخاتم المبهر الذي يضعه في بنصر يمينه، والساعة الذهبية التي في اليد نفسها.

لم ينتبه لدخولي فتركته حتى انتهى من الشرب ثم ألقيت عليه التحية:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- أنا عارف، طالب جديد في تخصص اللغة العربية، ولا أدري ما القاعة التي يفترض بي التوجه إليها.

- أهلاً بك يا عارف.

ابتسمت له، فأكمل:

- لم يتم تحديد القاعات بعد لكن يمكنك الانتظار هنا حتى يأتي أحد آخر من زملائك الجدد، ثم ابحثوا عن قاعة فارغة واجتمعوا فيها، وسآتي لأتحدث معكم قليلاً.

- حسنًا...

- بالمناسبة أنا الدكتور ربيع فيصل، وسأدرسكم مقرر أدب الرسائل.

- سعيد بمعرفتك دكتور ربيع.

لم يعلق على جملتي وجلس على كرسيه الذي يقع أقصى يمين باب المكتب، خرجت إلى الرواق بانتظار أن يظهر أحد زملائي الجدد، مضت قرابة نصف ساعة قبل أن تظهر فتاتين دخلتا عند الدكتور ربيع، وبعد لحظات أشار إليَّ بأن أقترب وعندما دخلت أخبرني بأن هاتين زميلتيَّ، ثم طلب مني أن أذهب وأبحث عن قاعة فارغة ثم أعود إليهم لأخبرهم، ذهبت أتفقد القاعات وبعد مضي قرابة العشر دقائق وجدت ضالتي؛ فأغلقت بابها حتى لا يدخل إليها أحد أثناء عودتي إلى الدكتور ربيع، وعندما وصلت إلى مكتب قسم اللغة العربية وجدت أن هناك ثلاثة شباب بالإضافة الفتاتين موجودون هنا، وما إن رآني الدكتور ربيع حتى قال لهم:

- ها قد عاد عارف.

ثم نظر ناحيتي وقال:

- هل وجدت قاعة فارغة يا عارف.

أجبته بابتسامة:

- نعم يا دكتور.

- اذهبوا معه وأنا سألحق بكم بعد لحظات.

قالها وهو يضع بعض الأوراق في حقيبته اليدوية.

أخبرت الدكتور برقم القاعة ومشيت أمامهم نحوها، فتحت الباب ودخلت وتتابعوا خلفي، وبعد لحظات أتى الدكتور ربيع وخلفه يمشي شاب معتدل القامة، حنطي البشرة، يرتدي سراويل زرقاء وقميص أبيض، ويضع نظارات على عينيه، دخل الدكتور ربيع ووضع حقيبته اليدوية على الطاولة ثم قام بالترحيب بنا، وتحدث معنا عن نظام الدراسة الجامعية ومدى اختلافها عن الدراسة الأساسية والثانوية، أبهرني بأسلوبه في الحديث، وتمنيت لو أني أصبح مثله في يومٍ ما، أنهى الدكتور ربيع حديثه وغادر القاعة، فقمت من مكانٍ لأتعرف على الزملاء، تبادلنا بعض الأحاديث وتعرفت على مناطق زملائي، وبدوري أخبرتهم باسم منطقتي، وعلمت أن مبارك -الشاب الذي حضر خلف الدكتور ربيع- يسكن في منطقة سروج التي لا تبعد عن منطقتي سوى مسافة نصف ساعة مشيًا على الأقدام؛ فاستغربت لأني لم يسبق لي أن رأيته من قبل، أخبرني أنه سيكون رفيقي في السكن الطلابي عندما علم أني سجلت فيه وسأمكث في الغرفة رقم أربعة، فرحت كثيرًا بهذا الأمر لأني شعرت بألفة غريبة نحوه، غادرنا القاعة التي لم يعد فيها أحد سوانا، وفي طريقنا مررنا بمكتب اللغة العربية الذي كان مكتظًا

بالطلاب، طلبت من مبارك أن يرافقني إلى الداخل لكنه أخبرني بأنه يريد العودة إلى قريته في هذه اللحظة؛ لأنه إن تأخر فلن يجد أي سيارة تقلّه إليها، ودعته على أن نلتقي في اليوم التالي داخل الكلية فأومئ برأسه إيجابًا ثم غادر.

دفعني فضولي للدخول إلى المكتب، دسست نفسي في الزحام حتى وقعت عيني على ذلك الرجل الستيني الممدد على الأرض، ورأسه على فخذ الدكتور ربيع الذي يحاول إيقاظه لكنه يفشل في ذلك، وبعد لحظات يدخل رجل يبدو من ملابسه أنه طبيب، يتفقد نبضه بوساطة سماعته الطبية، ثم يقول بلهجة آمرة جادة:

- أدخلوا النقالة التي في الخارج، احملوه عليها والحقوني به إلى السيارة.

لم تمضِ سوى ثوانٍ قليلة إلا ورأيت مجموعة من الطلاب يحملون ذلك الرجل، ويلحقون بالطبيب الذي خرج مسرعًا وخلفه الدكتور ربيع، حاولت أن أعرف ما الذي حدث آنفًا، لكن لم يبق في المكتب أي أحد يمكنني سؤاله، فخرجت خلفهم لعلي أظفر بإجابة للأسئلة التي بدأت تومض في عقلي، وعندما وصلت إلى الباحة وجدت أحد الطلاب الذين رأيتهم في المكتب قبل لحظات، فسألته عما حدث، وعن ذلك الرجل، فأجابني بوجه متأثر:

- أغمي على الأستاذ دكتور عادل فجأة، ولا ندري بعد ما الذي أصابه.

- ومن يكون الأستاذ دكتور عادل؟
- رئيس قسم اللغة العربية.

أكمل جوابه مع انتباهه لطالب يشير إليه من بعيد ويطلب منه أن يأتي إليه بسرعة؛ فانطلق نحوه ثم ركب خلفه على الدراجة النارية وغادرا الكلية، بقيت مسمَّرًا مكاني والتساؤلات تنهش عقلي، لكني لم أجد من يطفئ لهيبها بإجابة شافية؛ فالجميع يقول: لا ندري بما حدث، لم أعلم لماذا شعرت بكل هذا الاهتمام تجاه الأمر، ترى هل السبب نظرة الخوف التي رأيتها في عيني الدكتور ربيع، والذي يبدو أن علاقته به تتجاوز علاقة العمل؟ حاولت أن أتناسى الموضوع في الوقت الراهن، وقررت الذهاب إلى السكن الطلابي وانتظار الغد بما يحمله من أخبار، أو لعلي أجد أحد الطلاب في السكن الطلابي يمتلك معلومة عن الأمر، مشيت قرابة العشر دقائق حتى وصلت إلى السكن الطلابي الذي بدا شبه فارغ ذلك اليوم؛ إذ يبدو أن معظم الطلاب الساكنين فيه لم يحضروا بعد، أدخلت حقيبة ملابسي إلى الغرفة، وفيها وجدت ثلاثة طلاب فسلمت عليهم ووضعت حقيبتي على أحد الأسرَّة، ثم بدأت بالتعرف عليهم وعرفتهم بنفسي، سألتهم عما حدث قبل لحظات في الكلية فأخبروني أنهم لم يداوموا هذا اليوم ولا يعرفون شيئًا عن الأمر، ثم قال لي أحدهم أن أسأل أحد طلاب اللغة العربية الذين يسكنون في الغرفة المجاورة، لعلهم يعلمون بما حدث ويستطيعون إجابتي عن هذه الأسئلة، شكرتهم وذهبت إلى الغرفة المجاورة لكني لم أجد أحدًا

فيها فعدتُ خالِ الوفاض، جلست مع الشباب وتبادنا بعض الأحاديث حتى سمعنا جرسًا يرن، فقال لي أحدهم -واسمه عبدالعزيز-:

- هذا جرس الطعام يا عارف.. قم نتناول الطعام ثم نعود ونكمل أحاديثنا.

أخبرته أني لا أشعر برغبة في تناول شيء فبطني ممتلئة، هز رأسه ورافق خالد وعبد الرحمن إلى خارج الغرفة، استلقيت على الفراش فغلبني النعاس ونمت.

(2)

مبارك

وصلت إلى الكلية الساعة التاسعة صباحًا ولم أدرِ إلى أين أذهب، أخذت أتجول قليلاً في الأروقة لعلي أجد ما يدلني على وجود زملائي في التخصص، لمحت في الدور الأولى لوحة زرقاء صغيرة على أحد الأبواب مكتوب عليها "قسم اللغة العربية" فاتجهت إليها فورًا وعند وصولي وجدت رجلاً -أنيقًا يحمل بيده حقيبة سوداء- يخرج من الباب فسألته عن مكان تواجد طلبة تخصص اللغة العربية الجدد، فطلب مني أن ألحق به؛ لأنه ذاهب إليهم، فهززت رأسي ومشيت خلفه حتى وصل إلى إحدى القاعات وأشار إلي بيده أن أسبقه إلى الداخل ففعلت، وجلست على إحدى كراسي المقدمة، دخل خلفي وألقى التحية، ثم بدأ يعرفنا بنفسه والمقرر الذي سيدرسه لنا في هذا الفصل الدراسي، وألقى علينا بعض النصائح التي ستعيننا على الدراسة الجامعية، تحدث كثيرًا حتى اعتقدت أنه لن يتوقف أبدًا وبعد مضي زمن طويل قرر أن يرحم أذنيَّ من صوته المرتفع ويغادر القاعة، أجلت بصري في القاعة التي كانت شبه خالية؛ ففي الجهة اليمنى توجد ثلاث فتيات في الكرسي الأول ورابعة في الكرسي الذي يليهما، أما

في الجهة اليسرى يجلس في الكرسي الثالث شابين، أحدهما أسمر البشرة -يرتدي قميصًا أحمرًا ذا نقاط بيضاء صغيرة وسراويل رمادية فاتحة-، والآخر حنطي البشرة -يرتدي قرمة زرقاء طويلة الأكمام، مكتوب عليها بحروف إنجليزية بيضاء كبيرة، وسراويل جينز بيضاء-، أما خلفي في الجهة الوسطى يجلس في الكرسي الثاني شابين أحدهما حنطي البشرة -قصير القامة، يرتدي قميصًا زيتيًا فاتحًا وسراويل أفتح منه، وتبدو ملامحة مريحة-، والآخر أسود البشرة -يرتدي قرمة سكَّرية قصيرة الأكمام، وسراويل جينز زرقاء-، أخذت أتأمل كل شيء في القاعة، الجدران التي كاد لونها أن يختفي، والمناور التي في الجهة اليمنى عن جانبي المكيفين، ونوافذ الألمنيوم التي لا تخلو من آثار كتابة بأقلام السبورة، ومراوح السقف التي توقفت عن العمل قبل أن أنظر إليها بلحظات؛ بسبب انقطاع التيار الكهربائي، والسبورة التي تفتح على الجانبين، والشاشة الجديدة التي تختبئ خلفها، والطاولة والكرسي المخصصان للمُحاضِر الموازيان لباب القاعة، وبقايا الأوراق المرمية في الممرات بين الكراسي من الخلف، تفحصت كل شيء تقريبًا في القاعة حتى قطعت عليَّ هذا التأمل يد الشاب القصير -الذي يجلس خلفي- التي وضعها على كتفي الأيسر وهو يقف بجواري ويقول:

- مرحبًا أنا عارف زكي، وأنت ما اسمك؟

مددت يدي لأصافحه وأجبته:

- أنا مبارك فضل.

- سعدت بمعرفتك.
- وأنا كذلك.

تحدثت مع عارف مدة من الزمن تعرفنا فيها على بعضنا، ثم تبادلنا التعارف مع بقية الزملاء، بقيت أستمع إلى ثرثرة عارف المرحة بعد مغادرة الزملاء، وعلمت منه أنه سيكون رفيقي في السكن الطلابي ففرحت بذلك؛ إذ يبدو لي أنه سيكون رفيقًا رائعًا وسنصبح أصدقاء، أخبرته أني يجب أن أغادر حتى أجد سيارة تقلني إلى منطقتي قبل العصر، فابتسم لي ثم قال:

- إذن نلتقي في الغد.
- بإذن الله.
- هيا بنا، سأرافقك إلى الخارج.

غادرنا القاعة وفي طريقنا مررنا بمكتب اللغة العربية فرأينا ازدحامًا شديدًا فيه، طلب مني عارف أن أرافقه إلى الداخل لنلقي نظرة على ما يحدث فأخبرته أني مستعجل ويجب أن أغادر حتى أتمكن من الوصول إلى قريتي باكرًا، هز رأسه فابتسمت له وودعته.

خرجت من الكلية والشمس تواصل طريقها إلى كبد السماء وأنا أسترق النظر إليها بين الفينة والأخرى، مشيت تحت حرارتها قرابة العشرين دقيقة حتى وصلت إلى الخط الإسفلتي الرئيسي، التقطت أنفاسي ومسحت حبيبات العرق التي غطت وجهي ثم واصلت المشي إلى المطب، وهناك رأيت رجلاً يرتدي بدلة رسمية يقف عند المطب ويضع حقيبته اليدوية على رأسه،

يبدو من ملامحه أنه واقف منذ مدة طويلة ولم يرق له قلب أحد ليأخذه معه في سيارته، فقدت الأمل في سرعة ذهابي إلى منطقتي وقلت لنفسي إذا لم يتوقفوا لهذا الرجل وهو مهندم هكذا فكيف سيتوقفون لي، أكملت طريقي نحوه بخطوات يائسة وعندما وصلت ألقيت التحية:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

وقفت مدة يسيرة صامتًا قبل أن يفتح حديثًا معي:

- هل تدرس في كلية التربية؟

- لا، أنا أدرس في كلية لآداب.

- هذا أفضل.

- لم أفهم!

- لو كنت تدرس في كلية التربية فإن نهايتك ستكون مثلي، لا تجد من يقلك بسيارته ولا تستطيع استقلال سيارة بمالك؛ لأنك لن يكون لديك مال تستخدمه في المواصلات بعد شراء احتياجات البيت، هذا لو تمكنت من شرائها.

- أعانك الله!

قلتها بخيبة كبيرة، فأضاف:

- الأمر عندكم يختلف كثيرًا عنا.

- يبدو أنه لا يختلف.

شعرت حينها كأن إحباط الدنيا كله جثم على صدري، وتبادرت إلى ذهني العديد من التساؤلات حول كلام ذلك الرجل،

وعن الظروف المعيشية العصيبة التي جعلتها يفتح هذا الحديث المؤلم معي وهو يراني للمرة الأولى، فكرت في السنوات التي أمضاها في كلية التربية وفي دراسة تخصصه، والسنوات التي أمضاها بعد ذلك في البحث عن عمل، والوقع الذي صدم به في المدرسة التي يعمل فيها الآن، والمدارس التي سبقتها، سألته:

- ما هو تخصصك؟

أطلق زفرة قبل أن يقول:

- رياضيات.

كانت بالنسبة لي إجابة شافية وافية، اختصرت كل شيء يمكن أن يأتي بعدها، فمادة الرياضيات من أكثر المواد التي يعاني معلموها من حيث التحضير ومن ثم إيصال معلوماتها إلى الطلبة -كما سمعت من أحد معلميها ذات مرة-، أخذت نفسًا عميقًا وبدأت بالتفكير مليًا حول ما إذا كنت قادرًا على الخوض في الحياة الجامعية أم التوقف منذ هذه اللحظة، قطعت عليَّ حبل أفكاري السيارة التي توقفت لنا، صعدت برفقته إلى صندوق السيارة ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة ونصف، رفعت بصري نحو وجهه فابتسم لي ابتسامة فيها رائحة الإصرار وعدم اليأس من المحاولة من أجل الحصول على الحياة التي يتمناها، بادلته الابتسامة لكنها كانت أضعف من ابتسامته بكثير، بقينا صامتين طوال الطريق حتى طلب من صاحب السيارة أن يتوقف ويترجل عنها؛ لأنه وصل إلى وجهته، بقيت

أنظر إلى البعيد وأحاول تناسي جرعة الأسى التي حقنني بها ذلك الأستاذ الذي أطلعني على جزء كبير مأساته.

وصلت إلى منطقتي فطلبت من صاحب السيارة التوقف حتى أترجل عنها، شكرته ومضيت في طريقي متوغلاً بين أشجار السيسبان التي تقع عن جانبي الطريق الحجري المتعرج الواصل بين قريتي والخط الرئيسي، مشيت كعادتي عند المرور في هذا الطريق متفحصًا كل جزء منه، أتفقد الأغصان الصغيرة التي نبتت حديثًا، والأحجار التي كانت بارزة في منتصف الطريق أثناء مروري في الصباح الباكر وقد صارت ملقاة على وجه الأرض فانحنيت وأزلتها حتى لا تتسبب بعرقلة أصحاب الدراجات النارية، واصلت الطريق نحو بيتنا الذي يقع في منتصف قرية سروج المميزة بمبانيها الطينية القديمة التي بدأت الشقوق بالتسرب إلى جدرانها، وصلت إلى سوق القرية حين خروج الناس من صلاة الظهر فلمحت أخي الأصغر فيصل وبيده حجر صغير يحاول رميه على كلب كان يجلس بوداعة في الفيء؛ فناديته بأن يحضر إلي، وعندما رآني ألقى الحجر على الأرض وأتى بخطوات خائفة، سألته عما كان يفعل فأخبرني ببراءة أن الكلب يشبه الذي أكل دجاجته قبل شهر، فابتسمت له ومسحت على رأسه ثم قلت له:

- أما زلت غاضبًا على ذلك الكلب يا أخي؟

- لن أسامحه أبدًا؛ فقد كنت أحب الدجاجة كثيرًا.

- عليك أن تنسى يا أخي فكل شيء يمكن تعويضه.

- متى ستحضرون لي دجاجة أخرى.
- تعال معي إلى البيت لنكمل حديثنا هناك.
- هيا بنا..

أمسكت بيده وذهبنا إلى البيت.

(3)

عارف

استمتعت كثيرًا بأحاديث عبد العزيز الممتعة الطريفة ولم أدرِ كيف مضى الوقت بهذه السرعة إذ تفاجأت بسماع صوت أذان العصر، فرفعت معصمي أمام عيني لأتفقد ساعة يدي فوجدتها تشير الثالثة، حككت رأسي وقلت لعبد العزيز:

- كيف يعقل ذلك!
- ما الأمر؟
- إنها الثالثة عصرًا.
- ستعتاد الأمر يا عارف.

قال جملته وهو يكتم ضحكته، قام عبد العزيز ليتوضأ وعندما انتهى قمت بعده وطلبت منه أن ينتظرني لنذهب معًا إلى المسجد، قمت بتغيير الملابس التي كنت ارتديها ولبست إزارًا أبيضًا مطرز ببعض النقوش بالأسود وقميصًا أسودًا طويل الأكمام، مشينا قرابة مئة خطوة حتى وصلنا إلى المسجد الذي يقع في الناحية الغربية، ألقيت عليه نظرة من الخارج فوجدت أن اللون الأبيض الذي يعطي الجدران أصبح باهتًا من أشعة الشمس التي تقبلها كل يوم بشغف، وفي الداخل رأيت كل شيء

شبه قديم باستثناء برادات الماء الصغيرة في الموضوعة في جانبي مقدمة المسجد، صليت ركعتين ثم تناولت مصحفًا وجلست إلى الجدار الخلفي حيث يطيب لي الجلوس دائمًا، فتحت على الصفحة الثالثة من سورة الأنعام وأكملت من حيث توقفت آخر مرة، مضت قرابة العشرون دقيقة وأنا أقرأ حتى أقيمت الصلاة، نهضت من مكان واتخذت لي مكانًا في الصف الأول.

صلينا العصر خلف رجل صاحب صوت أجش، وبعد إتمام الصلاة خرجت أتجول في شوارع المدينة الآسرة بمفردي؛ أنا معتاد منذ أن ولعت بكتابة القصة -خلال السنة الثانية من مرحلة الثانوية- أن أذهب إلى أي مكان جديد بمفردي، أحاول التعمق في تفاصيل المكان والإنسان، مشيت بين البيوت أتأمل الطراز المعماري الذي يشكل سمة بارزة في وجه المدينة التي تصيب الناظر إليها بالفتنة، أمضيت قرابة النصف ساعة في التنقل ما بين الأزقة حتى وصلت إلى حصن أثري قديم، وقفت أمامه طويلاً حتى أثرت ريبة أهل ذلك الحي، اقترب مني أحد المارة:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

- أنا أدرس في كلية الآداب التي تقع في الطرف الآخر من المدينة، وقد أعجبني منظر هذا الحصن؛ فوقفت أتأمله.

هز رأسه وانصرف عني، أكملت تأملي للحصن فشعرت كأنه يحاول التحدث معي ويروي قصة آخر من نزل فيه،

ابتسمت لهذا الشعور الذي عاقرني وواصلت المشي واستكشافي للمدينة.

أدركني غروب الشمس وأنا أقف أمام طفلة تبعد عني عشرين خطوة وبين يديها قطة، حاولت التوجه نحوها وملاطفتها قليلاً لكنها عندما رأتني أنظر إليها من بعيد خافت وركضت نحو باب البيت الذي يقع عن يمينها وأغلقته خلفها، سلكت الطريق نفسها التي مشيت فيها أثناء رحلتي الاستكشافية لأعود إلى السكن الطلابي، أدركتني صلاة المغرب في منصف الطريق فقررت أن أصلي ثم أكمل طريقي، توضأت في دورة المياه التي تقع شمال خلف المسجد، ثم دخلت مع إقامة الصلاة واكتمال الصف الثاني فاتخذت لي مكانًا في الصف الثالث الذي قارب على الاكتمال، أخذت نظرة خاطفة على المسجد من الداخل قبل أن أسمع تكبيرة الإمام، اعتدلت في وقفتي وكبرت بعده، ومنذ سماعي للبسملة بصوته الندي وأنا في لذة لم أتمنى أن تنتهي، قراءته لآيات سورة عبس جعلتني أتخيل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصد الأعمى ويقبل على سادة القوم، لم يسبق أن جعلني إمام أتخيل مشهدًا قرآنيًا مثل هذا الإمام، صحوت من نشوتي عندما كبَّر للركوع فكبرت بعده وفي داخلي شيء يود لو أنه لم يركع أو يقوم للركعة الثانية بأقصى سرعة ممكنة، أكمل الركعة الأولى وقام للثانية وأنا أدعو في سري أن يقرأ سورة أخرى طويلة؛ لأستلذ بعذوبة صوته لكنه خيَّب آمالي عندما قرأ التكاثر.

وبعد أداء صلاة المغرب أكملت طريقي إلى السكن الطلابي الذي يبعد عن ذلك المسجد قرابة ثلاثمئة خطوة، حاولت طوال الطريق تقليد صوت الإمام وهو يقرأ لكني فشلت بالطبع إذ حال صوتي الرخيم دون ذلك، ضحك على نفسي حينها وقررت أني سأصلي المغرب كل يوم في هذا المسجد طوال سنوات دراستي الأربع.

دخلت الغرفة فوجدت عبد العزيز وخالد يجالسان خلف الحاسوب ويبدو أنهما يشاهدان شيئًا ما، ألقيت عليهما التحية فطلبا مني أن أنضم إليهما، اقتربت منهما وجلست بجوار خالد الذي كانت الابتسامة حينها تملأ وجهه وهو يشير لي بيده نحو شاشة الحاسوب ويقول:

- انظر يا عارف...

اتسعت عيناي عندما رأيته يجلس على المسرح وعليه ثياب العرس:

- زواجك؟!

- نعم.

- لم أكن أعلم أنك متزوج؛ فملامحك توحي بصغر سنك.

ابتسم لي، فقال عبد العزيز:

- وما قولك لو أخبرتك أن لديه طفلة عمرها ثلاث سنوات؟

- أنت تمزح؟!

- لا، إنه محق.

اعتقدت أنهما يمزحان معي، لكن عندما أخرج خالد هاتفه وأراني صورته مع ابنته صدقت، كانت تشبهه إلى حد كبير، استدارة الوجه، والعينان السوداوان، والابتسامة، كأنها نسخة كربونية منه، رفعت رأسي إلى وجهه وقلت:

- ما شاء الله! إنها تشبهك كثيرًا، ما اسمها؟

- غيداء.

- اسم جميل.

طلبت منه أن يعيد تشغيل الفيديو الذي كانا يشاهدانه من البداية، جلست أشاهد حفل زفافه وهو حمل جواله واستلقى على السرير المجاور، أما عبد العزيز فقد غادر الغرفة، انسجمت مع الحفل ولم أشعر بمضي الوقت؛ إذ أن المسرحية التي تم تقديمها ممتعة جدًا، دخل عبد العزيز وأخبرنا بقرب موعد صلاة العشاء؛ فطلبت من خالد أن يوقف الفيديو لأستأنفه عند عودتي؛ لأني لا أعرف كيف أوقفه.

نهض من مكانه وجاء إلى جواري ثم ضغط بإصبعه على أطول زر في لوحة الكتابة، ثم نظر لي وقال:

- عندما تعود من الصلاة اضغط على الزر نفسه.

- حسنًا.

خرجنا من الغرفة وتوجهنا إلى المسجد فوجدنا أن الإمام قد انتهى من سورة الفاتحة، دعوت في سري أن يقرأ سورة طويلة حتى نتمكن من إدراك الركعة الأولى، ولم أنتهِ من دعوتي

إلا وسمعته بصوته الأجش الجميل يقرأ سورة الشمس، أسرعنا في مشينا ووصلنا إلى الصف قبل أن يتم الآية الأخيرة.

في أثناء الصلاة خطر على بالي الأستاذ دكتور عادل فقلت لنفسي ترى ما الذي آلت إليه حالته؟ هل تحسنت صحته أم ازدادت سوءًا؟ قطع عليَّ شرودي تكبير الإمام فانتبهت أني ما زلت في وقوف القراءة وهو يهوي للسجود، ركعت سريعًا واعتدلت ثم سجدت ولم أدركه إلا في السجدة الثانية، أتممنا الصلاة ثم عدت برفقة عبد العزيز إلى السكن الطلابي وقبل أن ندخله انطفأت الكهرباء، نظر إلي عبد العزيز وقال:

- يبدو أنك ستبيت أول ليلة عندنا في الظلام.

- ماذا تقصد؟ ألا يوجد مولد خاص بالسكن الطلابي؟

ضحك بسخرية وأضاف:

- يبدو أنك مولع بمشاهدة الأفلام؛ الكهرباء لن تعود قبل الساعة الثالثة فجرًا، أما بشأن المولد الخاص فيؤسفني أن أخبرك يا صديقي بأنهم وعدونا بإحضار واحد، لكنك ستتخرج في الكلية قبل أن تراه..

- ماذا تعني؟

- أعني أنه لا يوجد، ولا أظن أنه سيوجد..

هززت كتفيَّ بعدم اكتراث وقلت:

- كما قلت لي ظهرًا، سأعتاد..

واصلنا طريقنا إلى الداخل واستلقينا على فرشنا إلى أن حان موعد تناول العشاء الذي كان عبارة عن معكرونة لا يوجد

منها في الصحن سوى اسمها فقط، لم أستسغ طعمها فنهضت سريعًا..

(4)

مبارك

تقلبت كثيرًا على الفراش أفكر في كلام المدرس الذي صادفته في طريق عودتي من الكلية ظهر هذا اليوم، قلت لنفسي لماذا أضيع أربع من سنوات عمري في الجامعة إذا كان مصيري سيكون مثله أو أسوأ؟ ثم أعود مرة أخرى وأقول لماذا لا أتوكل على الله وأخوض التجربة؛ فقد أتمكن من تحقيق ما لم يتمكن من تحقيقه، ثم إني شاب لدي موهبة الرسم ومؤكد أن حظوظي في الجامعة ستكون أفضل من حظوظه، تعبت من هذا الصراع فحاولت تجاهله حتى تمكن النعاس مني وغرقتُ في نوم عميق.

انتبهت على صوت أمي وهي توقظني لصلاة الفجر، فجلست على الفراش وحككت رأسي كعادتي قبل أن أنهض من مكاني، سمعت صوتها تناديني من خارج الغرفة لتتأكد هل استيقظت أم لا فلما رأتني أخرج من الغرفة وأتجه إلى الحمام توجهت نحو سجادتها المفروشة في الصالة، هذا المكان الذي تؤدي أمي فيه صلاة الفجر كل يوم، حتى عندما تبقى ساهرة عند رأسي أو رأس أبي أو أخي تطببنا عندما نمرض كانت تخرج وقت صلاة الفجر إلى المكان نفسه وتفرش سجادتها وتصلي، لطالما

أبهرني جلوسها على سجادتها في تلك البقعة من بيتنا، تبدو في جلستها كأنها الشمس طالعة من وادٍ مليءٍ بالسنابل، حاولت أكثر من مرة أن أرسم هذا المنظر، لكني سرعان ما أتراجع وأقول لنفسي هذا المشهد خاص بي ولن أشاركه مع أي أحد.

أكملت ترتيب حقيبة ملابسي، وارتديت الملابس نفسها التي ارتديتها يوم أمس، حملت الحقيبة برفق حتى لا أوقظ أخي، ذهبت إلى أمي في المطبخ وقبَّلت رأسها ثم سألها عن أبي فأخبرتني أنه لم يعد بعد منذ خروجه لصلاة الفجر ولا بد أنه ذهب يمشي كعادته صباح يوم الاثنين؛ فابتسمت وحملت حقيبتي مغادرًا، قامت من مكانها وقالت لي:

- أعددتُ لك الخبز المُحلَّى الذي تحبه؛ خذه معك.

نظرت إلى الكيس الممتلئ الذي تحمله:

- كل هذا لي؟ إنه كثيرٌ ولن أقدر على تناوله بمفردي.

- تناول ما تقدر عليه، وخبِّئ الباقي لبقية أيام الأسبوع، أخاف ألا يعجبك الطعام هناك.

- شكرًا لكِ يا أمي! لا حرمني الله منكِ!

- ولا منك يا بني!

أخذت كيس الخبز من أمي وودعتها، انتظرت عودة أبي أمام باب البيت قرابة الربع ساعة لكن عندما لم يأتِ حملت حقيبتي وخرجت باتجاه الخط الإسفلتي حتى أجد سيارة تقلني إلى الكلية، وأثناء مروري بسوق القرية وجدت أبي جالسًا هناك،

توجهت نحوه وقبلت رأسه ثم طلبت منه أن يدعو لي؛ فقام من مكانه ووضع يده اليمنى على كتفي وقال:

- موفق يا بني!

انحنيت لأتناول حقيبتي من على الأرض، فأدخل يده في جيبه فأخرج خمسة آلاف ﷼ ومدَّها إليَّ، شكرته وأخذتها منه ثم أكملت طريقي نحو الخط الإسفلتي، انتظرت قرابة النصف ساعة قبل أن أتمكن من إيقاف سيارة، نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى السادسة وخمس وأربعون دقيقة، وضعت حقيبتي في الكرسي الخلفي وركبت بجوار السائق، سألني أين أريد فأخبرته أني متجه إلى كلية الآداب، أخبرني أنه يعمل في محل العسل المقابل للكلية، سعدت كثيرًا؛ لأني لن أضطر لركوب سيارة أخرى حتى أصل إلى الكلية، لا سيما وأنا أحمل هذا الحقيبة الممتلئة بالملابس بالإضافة إلى كيس الخبر الذي أعطتنيه أمي.

بقينا ساكتين طوال الطريق نستمع إلى صوت القارئ في المذياع وهو يحملنا بصوته العذب إلى سماوات لا حدود لها من الجمال والروعة، وصلنا إلى أمام الكلية في تمام السابعة والنصف مع بدء توافد الطلبة؛ فشكرته على إيصالي ثم ترجلت عن السيارة وحملت حقيبتي، دخلت إلى السكن الطلابي فوجدته شبه ساكن، وعندما تجاوزت الباحة ودلفت إلى الغرفة رقم أربعة - حيث سأسكن- وجدت عارف يلبس حذاءه وآخر يعدل هندامه

أمام المرآة، وثالث يسرِّح شعره، ألقيت عليهم التحية فقفز عارف من مكانه بسرور وقال:

- أهلاً مبارك! أنرتنا.

بادلته الابتسامة وشكرته على هذا الترحيب، تعرفت على الشابين الآخرين ثم سألتهم عن الأسرَّة الشاغرة فأشروا إلى ثلاثة، توجهت إلى السرير الذي يقع شمالي الغرفة ووضعت حقيبتي عليه، ووضعت بجوارها كيس الخبز ثم جلست وطلبت منهم أن يشاركوني في أكل الخبز الذي أحضرته معي، ففرحوا بدعوتي واقتربوا مني، أخرجت واحدًا وقسمته بيننا، وبعد أن انتهيت من تناول قسمي من الخبز قمت لأذهب إلى الكلية، طلب مني عارف أنتظره لنذهب معًا فقلت له:

- ألم تجهز بعد؟

- أمهلني دقيقة أستَك فيها.

- حسنًا.

مضت دقيقتان من انتظار أمام بوابة السكن الطلابي قبل أن يلحق بي عارف، أخبرني أنه يجب علينا الذهاب أولًا إلى مكتب اللغة العربية فهززت رأسي موافقًا، كنت أظن أنه يريد الاستفسار عن القاعة التي يجب علينا التوجه إليها، لكن عندما دخلنا إلى المكتب وجدته يسأل عن حال الأستاذ دكتور عادل؛ فقلت لنفسي من يكون هذا الذي يسأل عن حاله؟ وما علاقته به؟ أجابه الرجل الثلاثيني الذي يجلس أمام الطاولة الثانية من جهة اليمين إنه تم ترقيده في المستشفى العام ووضعه الآن

مستقر، لم أفهم حينها عمَّ يتحدثان لكني فضلت البقاء صامتًا على أن أستفسر من عارف حين خروجنا، بعد أن حصل عارف على الإجابة التي بدا أنها حضر إلى الكلية من أجلها اليوم تحرك نحو الباب فانتبهت إلى أنه لم يسأل عن القاعة فقلت للرجل:

- ما القاعة التي يوجد فيها طلبة المستوى الأول؟

أغلق الكتاب الذي بيده ونظر إليَّ مجيبًا:

- تأكد من لوحة الإعلانات بجوار باب المكتب؛ فقد تم تعليق برنامج المحاضرات عليها.

شكرته ولحقت بعارف الذي كان حينها يقف أمام اللوحة، أخبرني أن علينا التوجه نحو القاعة رقم سبعة، مشيت معه وسألته عن الشخص الذي كان يستفسر عن حاله قبل لحظات؛ فأخبرني أنه رئيس قسم اللغة العربية وقد وقع مغشيًّا عليه يوم أمس في نهاية الدوام، اكتفيت بالإجابة وأكملنا طريقنا نحو القاعة.

كانت القاعة شبه ممتلئة بالطلبة، لمحت مكانين شاغرين في مؤخرة وسط القاعة فأخبرت عارف بهما ثم سلكت الممر الفاصل بين الجهة القريبة من الباب والجهة الوسطى ولحق بي عارف، مضت الدقائق وأنا أجيل ببصري في القاعة محاولاً تأمل تفاصيلها لعلِّي أجد فيها شيئًا مختلفًا عن القاعة رقم عشرين -التي جلسنا فيها يوم أمس- بحثت طويلاً وتمعنت لكني لم أجد ما يجعلها تختلف عنها، أعدت التأمل مرة أخرى فوقع بصري على

كرسي مكسور عن يميني؛ فضحك بسخرية في داخلي وقلت سأعتبره شيئًا مميزًا وإن لم يكن.

حضر الدكتور بعد مضي سبع عشرة دقيقة من جلوسي، ألقى علينا التحية وعرَّفنا بأنه اسمه ياسر وسيتولى تدريسنا مقرر الشعر الجاهلي، كان يرتدي بدلة رسمية لونها أزرق فاتح؛ فناسبت بشرته البيضاء، أخرج ورقة من حقيبته ثم طلب منا كتابة مفردات المقرر التي سيمليها علينا، لم أحضر معي ما أكتب فيه؛ لاعتقادي أنه سيكون مثل يوم أمس ولن يُعطى لنا شيء، فخطر لي أن أفتح تسجيل الجوال ليقوم بالمهمة نيابة عني، أخبرني عارف بأنه لم يحضر معه شيء ليكتب عليه فابتسمت له وأشرت بيدي إلى جيبي القريب منه فلم يفهم، أخبرته أني فتحت تسجيل الجوال ليقوم بالتقاط ما يقوله الدكتور؛ فأشار لي بقبضة يده وإبهامه للأعلى بأن أحسنت.

وبعد أن انتهى من مفردات المقرر أخبرنا بالمراجع التي سيعتمد عليها في إعداد المحاضرات وطلب منا زيارة المكتبة لإلقاء نظرة عليها؛ لأننا سنحتاج إليها في تنفيذ بعض الأنشطة التي سيكلفنا بها خلال هذا الفصل الدراسي، ثم بدأ بقراءة أبيات من معلقة عنترة وطلب من بعض الزملاء والزميلات قراءة أبيات أخرى، دعوت الله ألَّا يطلب مني القراءة؛ لأني لم يسبق لي أن تحدثت في حضرة فتيات غريبات عني، ومن حسن حظي أن الأبيات انتهت عند طلاب وسط القاعة.

غادر الدكتور القاعة بعد أن أخبرنا أن بإمكاننا الخروج وأخذ نصف ساعة راحة قبل أن تبدأ المحاضرة التالية، بدأ الطلبة بمغادرة القاعة ولم يبقَ أحد سواي أنا وعارف وطالب يجلس أمامنا بكرسيين يقرأ في كتاب وطالبة في منتصف جهة اليمين واضعة رأسها على ذراع الكرسي، طلب مني عرف أن نخرج لنجدد الهواء في رئتينا فأخبرته أني لا أريد الخروج فغادر بمفرده، مضت عدة دقائق قبل أن تدخل طالبة أخرى وتجلس في مقدمة جهة اليمين، مللت من الجلوس فقمت نحو الطالب الذي يقرأ، تعرفت عليه وسألته عن الكتاب الذي معه فأخبرني أن اسمه العقد الفريد.

(5)

سلمى

لم أدرِ متى بدأت المحاضرة ومتى انتهت؛ فقد كنتُ في حالة من الشرود والحزن يصعب وصفها، مضى عام ونصف منذ توفي زوجي لكني لم أستطع بعد التوقف عن التفكير به، على الرغم من محاولات أبي الكثيرة للترفيه عني وتحسين حالتي المزاجية التي تكاد أن تصبح حالة مرضية إن لم تكن قد صارت كذلك فعلاً، عام ونصف وأنا كلما وضعت رأسي على مخدتي بللتها بدموعي، أصبحت حياتي باهتة تفتقر إلى معنى حقيقي يمكنني العيش من أجله، انتبهت حولي في القاعة فرأيتها خالية إلا من ثلاثة طلاب فقط، وضعت رأسي على ذارع الكرسي وأطلقت العنان لدموعي التي لم يعد بإمكاني الإمساك بها أكثر من هذا، أفرغت مخزوني من الدموع وأعدت استجماع نفسي.

عدلت من جلستي على الكرسي كأنَّ شيئًا لم يكن، وأخذتُ نفسًا عميقًا أخرجته ببطء، انتبهت إلى مغادرة الجميع من القاعة وبقائي بمفردي فيها، فتحت حقيبتي وأخرجت دميتي التي على صورة أرنب لم يبقَ من لونيه الأصفر والأزرق إلا آثار قليلة، هذه هي الدمية الوحيدة التي ما زلت أحتفظ بها منذ طفولتي، أعتبرها

صديقتي المقربة، أبوح لها بما في نفسي، وأشاركها أفراحي، حتى أني أردت أخذها معي يوم زواجي حين ذهابي إلى بيت زوجي غير أن أبي طلب مني أن أتركها عنده في البيت، وافقت على مضض فأخبرني أنه سيعتني بها كما كنت أفعل وأكثر؛ فابتسمت له وأخبرته أني سأنتظره أن يحضرها لي معه في صباح اليوم التالي فهز رأسه إيجابًا.

كنت أنظر إلى الدمية بحب ولم أنتبه لدخول تلك الفتاة التي جلست بجواري وقالت بدون مقدمات:

- دمية جميلة!

- شكرًا لكِ.

- أنا رقية سعيد، زميلتك.. وأنتِ ما اسمك؟

- أهلاً بك يا رقية، أنا سلمى عمرو..

بقينا نتحدث إلى أن بدأ الطلبة بالتوافد إلى القاعة؛ فأخبرتني أنها ستقوم إلى مقعدها في المقدمة وسنكمل حديثنا بعد المحاضرة، هززت رأسي فقامت إلى المقعد الأول ناحية الممر، امتلأت القاعة بالطلبة وتبعهم الدكتور الذي عرفنا بأن اسمه أبوبكر وسيقوم بتدريسنا مقرر تاريخ الأدب في الفصلين الدراسيين الأول والثاني، كان يمتلك ملامح تبعث الطمأنينة في النفس، ولحيته البيضاء الكثة أضاءت وجهه نورًا، وثوبه الأبيض الذي يصل إلى أعلى كعبيه بإصبع أو إصبعين زاده وقارًا، منحني صوته الدافئ جرعة مكثفة من الحياة كنت بأمس الحاجة إليها، مضت ساعتان كاملة وأنا أتابعه ببصري، لم أغفل عنه لحظة

واحدة، كان يملك مهارة في الحديث تجبرك على الانسجام معه، ولم أحس إلا بقوله إن المحاضرة انتهت وإنه سيلقانا الأسبوع المقبل، وددت لو أن محاضرته لم تنتهِ لكني قلت لنفسي الأشياء الجميلة تنتهي بسرعة ولا تمنحنا الفرصة للاستمتاع بها مدة طويلة مثلك تمامًا يا أمير، سقطت دمعة على خدي لم أكن منتبهة لها فسارعت بمسحها حتى لا تلاحظها إحدى الفتيات.

أغلقت سحاب حقيبتي وحملتها فانتبهت إلى رقية التي تشير إليَّ بأن آتي إليها، انتظرت حتى غادر جميع الطلاب ومجموعة كبيرة من الطالبات ثم ذهبت نحوها، كانت تتحدث إلى طالبة أخرى بجوارها وعندما وصلت، قالت مشيرة إلى الطالبة:

- سلمى، هذه نجوى ابنة عمي.

- أهلاً نجوى، سررت بمعرفتك.

- وأنا كذلك.

خرجت مع الفتاتين إلى المصلى فوجدناه يعج بالطالبات، عثرنا على مكان لأنفسنا بصعوبة فجلسنا فيه، لاحظت رقية أني لست على ما يرام فسألتني عما بي، أخبرتها ألا تقلق فهو تعب اليوم الأول كما يبدو، هزت رأسها وابتسمت، حمدت الله في سري أنها اقتنعت بإجابتي ولم تستمر في استجوابي؛ فأنا لا أحب إظهار حزني أمام أحد، لاسيما في أول حديث بيننا.

وصلت إلى البيت الساعة الواحدة والنصف، بدَّلت ملابسي بسرعة وشرعت في إعداد طعام لي ولأبي؛ فهو يعود من عمله عادة في الثانية، منذ أن توفيت أمي -قبل زواجي بثلاث

سنوات- وأنا التي أهتم بشؤون أبي، حتى عندما تزوجت لم أتوقف يومًا واحدًا عن تحضير الطعام له و ترتيب ملابسه، مضت خمس سنوات منذ وفاة أمي، لكن أبي ما زال يحدثني عنها كل مساء، لدرجة أني أحس أنها موجودة بيننا تستمع إلى أحاديثه عنها، وفي الأشهر السبعة التي قضيتها مع زوجي الراحل أمير كنت لا أكتفي بإعداد الطعام له، وإنما أهاتفه كل ليلة قبل أن ينام لأتأكد بأنه لا يشكو من شيء ولا يحتاجُ شيئًا.

سمعت باب البيت يفتح ويغلق فعلمت أن أبي قد وصل، دخل عليَّ بابتسامته المعهودة التي يخفي خلفها إرهاقه من إفراغ حمولات المواد الغذائية التي تأتي بها السيارات الكبيرة إلى المخازن التي يعمل فيها، لم يشتكِ ولا مرة من عمله، على العكس فهو يشعرنا دومًا أنه سعيد به حتى وإن كنا نعلم بآلامه الجسدية التي يحول جاهدًا إخفاءها، بادلته الابتسامة وقلت له:

- دقائق ويجهز الطعام.

- بارك الله فيك يا بنيتي، هل يمكنكِ إحضار ماءً لي؛ فإني أشعر بجفاف في حلقي من حرارة الشمس؟

- لبيك يا أبي.

أحضرت له الماء معتدل البرودة كما يحبه ثم قدمت الطعام، تناول أول لقمة فأصدر صوتًا يشتي بتلذذه وقال:

- في كل مرة آكل من طبخك أتذوق مهارة أمك في الطبخ!

- أما زلت تتذكر طبخها يا أبي؟

- أتذكر مذاق كل طبق تعده! والطريقة التي تقدمه بها! والكلام الذي تقوله لي قبل الطعام وبعده، أتذكر طريقتها في الأكل! وحبها الزائد لشرب الماء عند تناول الكشري باللخم..

بقيت أستمع إلى حديث أبي عن أمي باستمتاع شديد، حتى أني نسيت أننا كنا نتناول الطعام حينها؛ فهو عندما يبدأ الحديث عنها لا تستطيع إيقافه ولا صرف سمعك عنه، انتبه إلى أني توقفت عن الأكل فقال لي:

- اعذريني يا ابنتي فقد صرفتك بحديثي عن إكمال طعامك.

- لا عليك يا أبي؛ فقد شبعت.

- وأنا شبعتُ أيضًا، يمكنك حمل الصحن.

رفعت بقايا الطعام وأنا أحدث نفسي بشيء من الأسى أن حالي يكاد أن يكون مشابهًا لحال أبي، هو خسر حبيبته وأنا خسرت حبيبي، حاولت التوقف عن التفكير في الأمر حتى لا يعاودني البكاء مرة أخرى.

جلست أمام التلفاز لعلي أجد ما يسليني، لكني لم أجد شيئًا، كل ما فيه ممل، أو سخيف، تذكرت حديث رقية عن برنامج المواهب الذي شاهدته مساء الأمس، فأخذت أبحث عنه لعلهم يعيدون عرضه، بحثت عن اسم القناة حتى وجدتها بعد مشقة، انتظرت أن تنتهي الفواصل الإعلانية التي استغرقت خمس دقائق من الترقب، وبعد طول انتظار منيت بخيبة أمل عندما وجدت الذي يعرض برنامجًا آخر.

مضت ساعات النهار رتيبة ولم أجد ما يملؤها لي سوى قراءة ما أخذناه اليوم في مقرر تاريخ الأدب، وكتابة بعض الأسئلة التي أريد أن أطرحها على الدكتور أبي بكر حتى تصبح المحاضرة مفهومة لي، أخبرني أبي إنه سيذهب إلى بيت عمي لإيصال بعض المستلزمات التي طلب منه إحضارها معه من السوق، عمي إلياس أكبر من أبي بسبع سنوات وليس لدى أبي إخوة غيره، لا أحب الذهاب إلى بيته إلا في المناسبات العائلية والأعياد أو عندما يمرض أحدهم؛ فأنا لا أشعر بالراحة عندهم بسبب عصبية عمي من أتفه الأمور وطريقة تعامل زوجته السيء معي الذي ما زلت أجهل أسبابه.

فتحت النافذة لأستمتع بمنظر الغروب الذي بدا شاعريًّا مع هبوب النسمات العليلة المحملة برائحة العشب الأخضر من المزرعة التي تقع في ناحية القرية ولا تبعد عن بيتنا كثيرًا، أخذت نفسًا عميقًا وتركته يستكشفُ رئتيَّ ببرودته المنعشة، بقيت أمام النافذة حتى اختفت الشمسُ عن الأفق آذنة لليل بأن يقبل عليَّ بحنينه وأشجانه.

قلقتُ على أبي كثيرًا؛ إذ ليس من عادته أن يتأخر إلى الساعة العاشرة مساءً، حاولت الاتصال به أكثر من مرة لكن جواله كان خارج نطاق التغطية، لم أدرِ بمن أتصل فعمي أيضًا لا يجيب على اتصالاتي، فكرت أن أذهب إلى بيت عمي لكني خفتُ من الذهاب بمفردي، أصابني خوف شديد وبدأت الهواجس تغزو عقلي بأسوأ الاحتمالات، استعذت من الشيطان ودعوت

الله أن يحفظ لي أبي ويرده لي سالمًا، وبينما أنا في ظلمات قلقي أحاول البحث عن جذوة تطمئن قلبي وردني اتصال من عمي، رددت بسرعة فكان المتحدث أبي وليس عمي، سألته إن كان بخير، ولماذا تأخر كل هذه المدة خارج البيت؛ فأخبرني أنه بخير، وكل ما في الأمر أن ابنة عاقل الحارة توفيت، وطلبوا منه أن يذهب ليحفر لها قبرًا، وعندما أراد أن يخبرني بأنه سيتأخر وجد أن بطارية هاتفه قد نفدت، فسألته لماذا لم يرد عمي على اتصالاتي فأخبرني أن جواله كان صامتًا ولم ينتبه له، ولما عاد هو من المقبرة أخذ جوال عمي ليطمئنني، أغلق المكالمة فأخرجت زفرة كادت أن تفتت أضلعي، تذكرت أني لم أصَّلي العشاء بسبب قلقي على أبي؛ فقمت من فوري لأصلي.

عاد أبي إلى البيت الساعة الحادية عشرة بعد أن انتهوا من مراسيم دفن ابنة عاقل الحارة، سألته إن كان جائعًا حتى أقدم له الطعام فأخبرني أنه تناول بضعة لقيمات في بيت العاقل ويريد أن ينام؛ لأنه متعب جدًا، ذهبت وأعددتُ له فراشه ثم انصرفت إلى غرفتي، تقلبت كثيرًا على فراشي محاولة اقتناص النوم لكني عجزت عن ذلك، أغمضت عينيَّ فرأيت أمير يبتسم لي بوجهه الملائكي الفاتن، بقيت أتأمل قسماته والدموع تنهمر بدون توقف، أردت أن أناديه وأتحدث معه لكن العبرة أمسكت لساني عن النطق، قمت وتوضأت ثم صليت ركعة معظمها سجود، دعوت الله أن يربط على قلبي؛ لأتمكن من عيش حياتي بهدوء ورضا مثل أبي، وبعد انتهائي من الصلاة شعرت براحة عجيبة

غمرتني، أغمضت عيني ولم أشعر بنفسي إلا مع أذان الفجر، نهضت من فراشي وذهبت لأوقظ أبي فوجدته قد سبقني في الاستيقاظ ويستعد للذهاب إلى المسجد.

(6)

مبارك

هذه هي الليلة الأولى التي أقضيها خارج البيت، كانت تجربة فريدة بالنسبة لي على عكس باقي زملائي في الغرفة فقد كانت لهم تجارب كثيرة في المبيت خارج البيت قبل التحاقهم بالدراسة الجامعية، فكرت في أن أرسم أول لوحة لي في هذه المرحلة الجديدة في حياتي، أخرجت جميع أدوات الرسم من الحقيبة وبسطتها أمامي على السرير، كانت الغرفة فارغة بعد صلاة المغرب والهدوء يخيم على المكان، لن أجد أنسب من هذه الظروف لأبدأ لوحتي، لم تكن لدي فكرة محددة حول ما سأرسمه؛ لذا بقيت قرابة النصف ساعة وأنا أنظر إلى الورقة البيضاء والقلم بيدي، كنت سأعدل عن قرار الرسم لو لم يلمع في ذهني ذلك المشهد، ابتسمت وبدأت النقش الخفيف على الورقة وأنا أقول في داخلي يبدو أنه جاء اليوم الذي سأخلد فيه ذلك المشهد داخل لوحة.

انفصلت تمامًا عن العالم حولي وكأن الزمان توقف عن الحركة، لم أنتبه لعارف الذي كان يقف فوقي منذ مدة لكنه فضَّل البقاء صامتًا، وعندما شعرتُ بألم في ظهري توقفت عن

الرسم ورفعت رأسي فرأيته ينظر نحو اللوحة بإعجاب، سألته عن زمن حضوره فأخبرني إنه حضر من ساعة تقريبًا لكنه لم يرد أن يقطع عليَّ حالة الانغماس التي كنتُ سابحًا فيها، سألني إن كنت صليت العشاء فحككتُ رأسي وقلت إني لم أسمع الصلاة، طلب مني أن أقوم لأصلي ثم أحدثه عن لوحتي.

بعد انتهائي من الصلاة وجدته ينظر إلى بترقب وبادرني بسؤاله:

- منذ متى وأنت ترسم؟

- أول محاولة لي كانت في الصف الثاني الابتدائي.

- الثاني الابتدائي؟!

- نعم، غير أنها كانت محاولة متواضعة جدًا، أما أول محاولة حقيقية فقد كانت في الصف الأول الثانوي فزت عنها بأفضل لوحة في مسابقة الإبداع التي أقيمت في تلك السنة.

- لم أسمع عن هذه المسابقة!

- ربما لأنها أقيمت لمرة واحدة فقط، نفذها مكتب التربية بالمديرية وكانت الجائزة من نصيبي.

طلب مني أن يلقي نظرة عن قرب على اللوحة فأعطيته إياها وأخبرته أنها تحكي عن أول مرة أخذني أبي للمشي معه بعد صلاة الفجر، عندما كنتُ في التاسعة من عمري، كانت سعادتي لا توصف حينها وأنا إلى جواره، صحيح أني عدتُ بآلام في ركبتيِّ من المسافة التي مشيناها، لكني لم أخبر أحدًا بالأمر بل إني طلبتُ منه أن يصحبني معه في المرة القادمة أيضًا فابتسم لي

ووعدني بذلك، رأيت بريق الانبهار في عينيْ عارف أثناء تحديقه في اللوحة فغمرني شعور بالانتشاء يصعب وصفها بأي كلام في تلك اللحظة، شعرت بأني قد حققت إنجازًا بأن أجعل شخصًا ينظر إلى لوحتي كل هذا المدة من الزمن.

لم يكتفِ عارف بالنظر إلى اللوحة فقط، بل طلب مني أن أقوم بتعليقها على أحد جدران الغرفة لأضيف لها نوعًا من الحياة على حد قوله، وأنا لم أصدق خبرًا فقد وافقته على فكرته التي كانت تراودني قبل أن ينطق بها، وكأني كنت أنتظر أن تأتي من أحد غيري، ساعدني في تعليقها قبالة مدخل الغرفة وعندما سألته عن سبب اختياره لهذا المكان تحديدًا أخبرني بأنه يريد أن يفاجئ الشباب أثناء دخولهم للغرفة، لم أعلِّق على سببه واكتفيت بأن الجميع سيشاهد لوحتي وسيعرفون بموهبتي التي لم يكن يعلم بها أحد سوى المقربين مني الذين لم تكن تعني لهم شيئًا كبيرًا، ربما لأنهم لم يفهموها، وربما لأنهم لا يعتبرونها ذات قيمة تستحق أن يتم تسليط الضوء عليها.

حصلت على أطنانًا من الإطراءات جعلتني أطير في السماء ولا أرغب بالعودة إلى الأرض، نمت ليلتي بسعادة غامرة، واستيقظت في فجر التالي بنشاط، استغربت من استيقاظي بمفردي مع أني في العادة أتعب أمي عندما توقظني، نهضت من على السرير وخرجت لأتوضأ فوجدت زحمة عند الحمام، عدت إلى الغرفة وغيرت ملابس ثم ذهبت إلى المسجد حتى لا تفوتني الصلاة وأنا في انتظار أن يحين دوري للدخول الحمام.

بقيت في المسجد أقرأ القرآن -مع أشخاص يُعدُّون بأصابع اليد الواحدة- إلى شروق الشمس، حينها قمت وصليت ركعتين ثم عدت إلى السكن الطلابي من أجل التجهز للذهاب إلى الكلية، دخلت الغرفة برفق عندما وجدت أن الجميع ما زالوا نائمين، ارتديت ملابسي ثم قمت بإيقاظهم ليشاركوني في خبز أمي المُحلى، استيقظ الجميع باستثناء عبد الرحمن الذي أخبرني يوم أمس أنه لا يأكل أي شيء به سكر، تناول كل واحدٍ حاجته ثم توجهت إلى الكلية بمفردي بعد أن أخبرت عارف أني لن أنتظره كيوم أمس؛ لأجد لي مكانًا في الصف الأمامي من القاعة حيث أحب الجلوس.

حمدت الله أني جلست في منتصف القاعة فقد كان يومًا حافلاً بالمعلومات العجيبة التي لن يسبق لي أن سمعت بها، خاصة تلك المعلومات المتعلقة بموسيقا الشعر، على الرغم من أن غيري من الطلبة يعرفون عنها وقالوا إنهم درسوا بعض اللمحات عنها في الثانوية، لكن أنا وآخرين مثلي كنا نسمع بها للمرة الأولى؛ لأننا لم نكمل دراسة المناهج بسبب التوقفات الكثيرة التي أصابت مدارسنا، دونت كل معلومة بشغف واستمتاع، أعجبتني طريقة تعامل الدكتور أحمد مع المقرر؛ إذ أن ثلاثة أرباع المحاضرة تطبيق على أبيات من الشعر الفصيح والشعر الشعبي كذلك، كان بحرًا لا تُكدِّره الدلاء في المعرفة.

مضت الأيام بوتيرة سريعة فقبل عدة أيام كنا في أول أسبوع دراسي وها نحن اليوم في نصف الشهر الثاني من الدراسة،

لم أكن كثير الاحتكاك بالزملاء سواء داخل القاعة أو خارجها بخلاف عارف الذي يتحدث مع الجميع ويمازحهم، كثيرًا ما كنت أغبطه على قدرته الفذة في فتح حوار مع أيٍّ كان، حتى إن الدكاترة صاروا يعتمدون عليه في تنفيذ المهام مع أنه لم يكن مندوب دفعتنا، وعندما حاول معه الطلبة أن يكون المندوب قال إنه لا يحب أن يتم تقييده بهمة محددة.

كان التحضير للامتحانات الشهرية مقلق بعض الشيء إذ أن طريقة الدكاترة والأستاذة هنا ستكون مختلفة بعض الشيء عن عما اعتدت عليه في المرحلتين الأساسية والثانوية، وقلقي نابع عن رغبة مني بتحقيق الترتيب الأول على الدفعة؛ لأتمكن من التقديم على منحة داخلية تعينني على تكاليف الكلية، اعتكفت على المقررات حفظًا وفهمًا وإعادة تلخيص بعضها لتثبت المعلومات في رأسي، وعندما جاءت الامتحانات كنت مستعدًا لها تمام الاستعداد، دخلت الامتحانات التي كانت متناثرة في أيام أسبوعين كاملين متوكلاً على الله ومستعينًا بمخزوني من المذاكرة ودعوات أمي وأبي، وكانت النتائج كما رجوت وتوقعت.

بعد نتائجي المرتفعة في الامتحانات تغير تعامل الجميع معي، إذ بدأ الدكاترة يولونني اهتمامًا ويستحثوني على مواصلة التميز، أما زملائي الطلبة من الجنسين فقد بدأوا يسألونني عن بعض ما يشكل عليهم قبل أن يرفعوا السؤال إلى الدكاترة، وكنت أجيبهم بكل سرور، قويت صداقتي مع عارف وأصبحنا لا نفترق أبدًا لا في الكلية ولا خارجها حتى أطلق علينا خالد لقب (التوأم)، لم

يكن كلٌ منا عونًا للآخر في الدراسة فقط، وإنما حتى على صعيد مواهبنا فقد كان يحثني على الاستمرار في الرسم وتطوير مهاراتي فيه وأنا كنت أسأله دومًا عن آخر قصة كتبها.

وفي ذات صباح في الأسبوع الثاني من الشهر الثالث جاءني مسرعًا وقال ما رأيك في أن نقيم جلسة ثقافية فنية داخل القاعة وتعرض فيها إحدى لوحاتك، ويقوم كل واحد بإظهار مواهبه وإبداعاته للجميع، أعجبتني الفكرة وسألته إن كنا فعلاً نستطيع أن نحصل على الإذن لفعل ذلك أم لا فأخبرني أنه قد حصل على الإذن مسبقًا من رئيس القسم فقلت له مازحًا:

- هذا يعني أنك قد أعددت الوليمة مسبقًا والآن تدعوني للأكل فقط.

رد على قولي ضاحكًا وهو يمسح على مؤخرة رأسه:

- شيء من هذا القبيل.

- على بركة الله إذن.

أتى يوم الثلاثاء -أي بعد يومين من إخباري بالجلسة- فقمنا بتنفيذ فكرة عارف، كان يومًا جميلاً بكمية التنوع الذي فيه، اندهشت بمواهب زملائي وزميلاتي لدرجة أني وجدت موهبتي متواضعة مقارنة بمواهبهم، لكن رأيهم كان مختلفًا عندما اعتبروا لوحتي التي عرضتها أجمل شيء في الجلسة، سعدتُ برأيهم في اللوحة الذي أيده الدكتور عيسى -أستاذ مقرر النقد القديم- إذ قال إنه أعجب بكمية التفاصيل الموجودة فيها.

مضت الأيام وأصبحت أدعى بلقب الرسام مبارك بين طلبة دفعتي، غير أني حافظت على مستواي المتقدم في الدراسة ولم أجعل الرسم يسرقني من مذاكرتي، بل إني كنت أستعين به في الكثير من الأحيان لتثبيت بعض المعلومات المعقدة من خلال رسمها.

وقبل امتحانات نهاية الفصل أخبرني عارف بأن حالة الأستاذ دكتور عادل ازدادت سوءًا ويبحثون عن إمكانية نقله للعلاج خارج البلاد؛ لأنهم لم يجدوا علاجًا مجديًا لحالته هنا، حزنت كثيرًا عليه فقد سمعت أنه كان محبوبًا بين الجميع، وغيابه أحدث نقصًا كبيرًا بين طلابه؛ إذ لا أحد في الجامعة كلها يغني غنائه في غزارة المعلومة ومهارة إيصالها.

أتممت الفصل الأول بتحقيقي الترتيب الثاني على الدفعة بعد ياسين -عاشق الكتب-، لم أحزن كثيرًا على خسارة الترتيب الأول إذ أن فارق الدرجات بيننا لم يكن سوى سبع درجات فقط، وقلت لنفسي عليَّ أن أبذل مزيدًا من الجهد في الفصل القادم؛ لتحقيق درجات أفضل من التي حققتها في الفصل الأول سواء حصلت على الترتيب الأول أم لم أحصل عليه، المهم بالنسبة لي في هذه المرحلة من حياتي أن أخلق منافسة مع نفسي لا مع الآخرين حتى لا أقحم نفسي في مقارنات لا تسمن ولا تغني من جوع.

عدت إلى القرية وبشرت أمي وأبي بنتيجتي ففرحا لي كثيرًا، وقال أبي إنه سيصنع وليمة في المساء على شرف نجاحي فشكرته

على ذلك، وبعد صلاة العصر ذهبت إلى عارف والتقيته على النهر، وبقينا نتحدث معًا حتى غربت الشمس.

(7)

عارف

منذ أن تم نقل الأستاذ دكتور عادل للعلاج في الخارج وأن أحاول الاطمئنان عليه بشكل شبه يومي، كان الدكتور ربيع هو الشخص الذي يمدني بالمعلومات عن حالته؛ فهو أقرب شخص إليه من هيئة التدريس، لم أكن أعلم سبب هذا الاهتمام الذي أبديته تجاه مرض الأستاذ دكتور عادل على الرغم من أني لم يسبق لي أن جمعتني به قاعة دراسية، ولا حتى منحني معلومة تجعلني أبالغ في الاستفسار عن صحته وأزعج الدكتور ربيع بأسئلتي التي صار يحفظها عن ظهر قلب ولديه إجابات كاملة عنها لكثرة ما رددته عليه في الكلية أو عبر تطبيق الواتساب، وما إن ألقي عليه التحية حتى يقدم إليَّ التقرير اليومي المفصل عن حالة صديقه.

دعوت الله كثيرًا أن يعافي الأستاذ دكتور عادل، وأن يمنحني فرصة التتلمذ على يديه، لكن الله أراد أن يصطفيه إليه في الإجازة ما بين الفصلين، كان وقع خبر موته أليمًا على قلبي عندما شاهدت النعي على صفحة الدكتور ربيع، قلت لنفسي أول الأمر ربما يكون المقصود بالنعي شخصًا آخرًا، لكني عندما اتصلت

به هاتفيًا أكد لي الخبر بصوت يدافع الدموع ويظهر تجلُّدًا متصنعا، أنهى المكالمة بسرعة قبل أن يكشفه صوت بكائه أمامي فأشفق عليه، إنها المرة الأولى التي أحس بضعف الدكتور ربيع فقد كان طوال الفصل الدراسي الماضي جامدًا يوهم من ينظر إليه أنه لا يمتلك أية مشاعر، لكن اتضح لي أن خلف هذه الجمود والقوة هشاشة يمكن أن تؤثر بها نسمة هواء.

حاولت الاتصال بمبارك لإبلاغه بخبر وفاة الأستاذ دكتور عادل لكن جواله كان مغلقًا، تذكرت أن رقمه الذي معي لا يمكن الاتصال به عندما يكون في القرية لعدم وجود شبكة، ندمت لأني لم آخذ منه رقمه الآخر، فكرت بالذهاب إلى قريته غير أني عدلت عن الفكرة فقد لا أجده هناك ويكون ذهابي عبثيًا، شغلت نفسي ببعض أعمال البيت التي كنت أؤجلها منذ مدة، أكملت ما عليَّ من أعمال وذهبت إلى المسجد لصلاة الظهر، ثم عدت مرة أخرى إلى البيت وتناولت الطعام ثم غفوت حتى أذان العصر عندما أيقظني أبي، أديت الصلاة وبقيت في المسجد قرابة ربع ساعة لم يغب فيها موت الأستاذ دكتور عادل عن بالي.

فكرت في أن أفرغ حزني على الورق وأكتب قصة تحكي عن الأستاذ دكتور عادل لعلي أتمكن فيها من تصويره حتى أجد مسوغًا للغمامة التي حجبت صدري، أريد تخليده بمقدار صفحة تربطني به، أنا مؤمن بأن الأدب يخلق رابطة بين الأشخاص أمتن من رابطة النسب، أود حقًا أن أرتبط به في نص لكن ليس كما عللتُ آنفًا وإنما لأخلد نفسي فقط، حملت أدواتي المعتادة

وصعدت إلى سطح منزلنا الذي يمنحني القدرة على التحليق بخيالاتي وأنا أنظر للسماء، نفضت الحصيرة ووضعت عليها أوراقي وقلمي وقنينة الماء التي ملأتها من الصنبور، أنا هكذا أحب شرب الماء بكثرة عند الكتابة، تذكرت أني لم أحضر أهم ما يكمل طقوس الكتابة عندي؛ فوضعت القنينة فوق الأوراق حتى لا تتطاير ثم نزلت إلى الغرفة مسرعًا، فتشت عنه حيث تركته آخر مرة في حقيبتي فلم أجده، تذكرت أني وضعته في الدولاب صباح هذا اليوم، أدخلت يدي تحت الثياب فتعرفت على شكله الأسطواني وملمسه الناعم، سحبته برفق ثم تأملته بابتسامة وقلت في نفسي: لا تكتمل طقوس الكتابة بدون سماع الموسيقا، صعدت مرة أخرى إلى السطح ووضعت الجهاز الصغير بجواري بعد أن افترشت الحصيرة، تأكدت من عدد الأوراق فوجدتهن عشرًا غير منقوصات، فتحت صوت الموسيقا على المعزوفة الثالثة لبيتهوفن وشرعت في الكتابة، وأكملت كتابة الفكرة في الورقة الأولى ثم توقفت لبرهة أستمتع فيها بصوت العزف وشرب الماء، وبعدها استلقيت على ظهري وأخذت أتأمل السماء الصافية في عصر ذلك اليوم، أمضيت قرابة الربع ساعة وأنا على تلك الحالة لا يتحرك مني شيء سوى جفناي، جلست وقمت بقراءة الفكرة من جديد ثم عدَّلت فيها بعض الشيء حتى اقتنعت من كونها أصبحت مناسبة لتصبح قصة، ثم شرعت في كتابة قصتي عن الأستاذ دكتور عادل، وبعد انتهائي من الكتابة أعدت قراءة ما كتبت أكثر من مرة وفي كل مرة أكتشف أني أغفلت

جزئية معينة فأعيد الصياغة من جديد، امتلأت جميع الأوراق التي أحضرتها معي ولم تتبقَ سوى الصفحة الخلفية من الورقة الأولى التي كتبت فيه الفكرة فكبت فيها الصياغة الأخيرة للقصة، ثم رفعتها أما عيني بإعجاب شديد وكست وجهي ابتسامة عريضة بعد هذا المتعة التي استغرت مني طوال مدة العصر حتى قبيل أذان المغرب بلحظات يسيرة.

مضى أسبوع كامل على وفاة الأستاذ دكتور عادل لم أر فيها مبارك حتى وردني منه اتصالاً هاتفيًا تلك الليلة بعد صلاة العصر ففرحت عندما رأيت جوالي يضيء باسمه فأجبته على الفور، أخبرني أنه متواجد على النهر في المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه، ثم سألني إذا كنت متفرغًا حتى أنضم إليه فأخبرته على الفور بأني سأكون عنده بعد ربع ساعة بالضبط، أغلقت الهاتف ثم قمت بتغيير ملابسي بسرعة وخرجت من البيت إلى حيث ينتظرني، وقد استغرق مني ذلك كله قرابة النصف ساعة فحاولت أن أسرع في مشيتي حتى لا أتأخر أكثر حيث أن بيتنا يبعد قليلاً عن مكان جلوسنا.

وصلت إلى مكان جلوس مبارك فرأيته في حالة من الانفصال عن العالم المحيط به، حيث كان مصوبًا بصره إلى الأمام ولا أدري إلى ماذا كان ينظر بالضبط، حاولت الاقتراب من مكان جلوسه برفق حتى لا أقطع عليه حالته تلك التي يبدو أنه غارق فيها منذ مدة طويلة ولم يحس بتأخري، وقبل أن أجلس بجواره انتبه لحضوري وقال مبتسمًا:

- أهلاً عارف.

حككت رأسي بشيء من الإحراج وقلت له:

- جعلتك تنتظر طويلاً؟

- على العكس فلم أحس بالمدة، المكان هنا لا يجعل الإنسان يشعر بوطأة الانتظار.

قال جملته الأخيرة وهو يشير بيده نحو غصن شجرة يلامس الماء الجاري، فهززت رأسي مؤيدًا كلامه ثم قلت:

- حاولت الاتصال بك قبل أسبوع لكن لم يكن لدي رقمك الذي يعمل في القرية، وأنت لا تحب التواجد على الواتساب إلا نادرًا.

- يبدو أن هناك أمرًا كبيرًا تود إخباري به!

- أردت إبلاغك بخبر وفاة الأستاذ دكتور عادل.

- توفي؟!

- نعم.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له!

سألني عما إذا كنت قد كتبت شيئًا عنه فأخبرته أني كتبت قصة لكنها للأسف لا توجد معي في الجوال، فقال إنه سينتظر أربعة أيام ليسمعها مني في السكن الطلابي، فقلت له وقد غاب عن ذهني أن الدراسة ستبدأ بعد أربعة أيام:

- هل تصدق أني نسيت أن الدراسة ستبدأ يوم الأحد القادم.

- تمزح؟!

- بل أنا جاد.

ضحك مني وقال:

- يبدو أن هناك ما سرق عقلك.

بادلته الضحكة وقلت:

- إن الله تجاوز عن الخطأ والنسيان.

هز رأسه إيجابًا ثم نظر للبعيد وأخذ نفسًا عميقًا فزفره ثم قال:

- كلما أتيت إلى هذا المكان أشعر براحة عجيبة، كأنما أقوم بإعادة شحن نفسي.

- معك حق فهو مكان ملهم.

- هو كذلك.

بقينا نتبادل الأحاديث حتى انتزع مبارك مني مشهد الغروب الذي زيَّن الأفق، قررت السكوت حتى يكتمل استمتاعه بهذه اللحظة التي أعلم أنها أحد أهم أسباب مجيئه هذه الليلة، لقد صرت أعرفه إلى حد كبير وأدرك مدى تقديسه لمثل هذه

المشاهد واللحظات التي تشكل جزءًا مهمًا من سعادته، وبعد اكتمال غروب الشمس سألته:

- لماذا لم تصور مشهد الغروب وتوفر على نفسك كل هذا الوقت، وستمنحك الصورة أيضًا إمكانية إعادة تكرار المشهد كلما رغبت في ذلك.

- الصورة ليس فيه روح يا عارف، ثم إنها تختزل جزءًا محددًا من المشهد، ولا تقل لي استبدله بمقطع مرئي لأنه لا يروقني كذلك في توثيق الجمال وتصويره.

لم أقتنع كثيرًا بكلامه أعتقد أنه يبالغ نوعًا ما، لكن لا يهم طالما أنه مستمتع بما يفعل، نهض من مكانه وأخبرني أنه يود العودة إلى قريته، طلبت منه أن يبقى أكثر غير أنه لم يرضَ وأخبرني بأنه سينتظر الأحد من أجل سماع القصة التي كتبتها فابتسمت له ووعدته بأنه سيكون أول من يقرؤها في الجامعة، طلبت منه أن ينتظر لنصلي المغرب معًا على النهر فأخبرني بأنه سيصلي في قريته ثم انصرف.

(8)

سلمى

ذهبت إلى الكلية بنشاط لم أعتده منذ مدة بعيدة، كان اليوم الأول من الفصل الثاني والكلية غير مزدحمة بالطلبة، يبدو أن الكثيرين قرروا أن يتغيبوا في هذا اليوم، دخلت القاعة فوجدتها فارغة فاتخذت لي مكانًا في وسط جهة اليسار، فكرت في أن أستغل وقتي في القراءة فاستخرجت الكتاب الذي أحضره لي أبي يوم أمس بعد أن قام بالترفيه عني برحلة لم أكن أعلم أنه يخطط لها منذ بداية الإجازة النصفية، تلمست الغلاف برفق وقرأت عنوانه (حبات البرد)، أسفر وجه أبي أمامي بنوره السماوي الآسر وهو يمده لي بابتسامة، لمعت عيناي من فرط الفرحة وأخذت الكتاب ثم طبعت قبلة دافئة على خده وقلت له:

- أحبك كثيرًا.

أفقت من شرودي فانتبهت إلى وجود رقية بجواري التي يبدو أنها قد وصلت منذ زمن ولم أشعر بها؛ فأعدت الكتاب إلى حقيبتي قبل أن أقرأ منه سطرًا وأقبلت عليها بوجهي فبادرتني بسؤال مباغت قبل أن تمنحني فرصة لتحيتها:

- من هذا الذي تحبينه كثيرًا؟

لم أفهم قصدها في بادئ الأمر، واستغربت من سؤالها؛ فأكملت بمكر:

- هل الكتاب أم مهديه؟

فهمت أخيرًا أن صوتي كان مسموعًا لها عندما كنت أتخيل لحظة إهدائي الكتاب من أبي، فقررت أن ألاعبها قليلاً وأجعلها تتوهم أني أعيش قصة حب جديدة فمن خلال معرفتي بها خلال الفصل الماضي فقد عرفت أنها فتاة فضولية جدًا وتحب معرفة كل شيء عن حياتي خصوصًا بعد أن فتحت لها قلبي وأخبرتها بأشياء كثيرة عن حياتي، كما أني أعلم أيضًا أن فضولها ناشئ عن حب لي، نظرت إلى عينيها وأنا أضم الحقيبة إلى صدري وقلت:

- بل مهديه يا رقية، إني أحبه كثيرًا.

- من هو؟ أخبريني، هل هو من قريتكم أم من الكلية؟

- سأخبرك فيما بعد، دعينا الآن نغلق الموضوع حتى لا يسمعنا أحد.

قلت جملتي الأخيرة وأنا أشير برأسي إلى باب القاعة الذي بدأ الطلبة بالولوج منه زرافاتٍ ووحدانا، أطلقت زفرة وقالت:

- حسنًا، لكن لن أدعك تذهبين هذا اليوم قبل أن تخبريني عنه.

لمحت التعطش في عينها فضحكت عليها في سري ثم أجبتها هامسة لأؤكد شكوكها:

- لا تقلقي، سأخبرك بكل شيء.

مضى اليوم سريعًا ولم يكن سوى عبارة عن محاضرة واحدة ممتعة استمرت لثلاث ساعات برفقة الدكتور أبوبكر الذي لا أمل من طريقة شرحه أبدًا، وبعد انتهاء المحاضرة ومغادرة عدد كبير من الطلبة وجدت رقية تلتفت نحوي وتقول:

- هيا أخبريني.

- أخبرك بماذا؟

حاولت الاستغباء لأستمتع بارتفاع وتيرة فضولها وترقبها، وبعد أن بلغ بها الفضول كل مبلغ أخبرتها أني كنت أتحدث عن أبي فلم تقتنع وما زالت مصرة على وجود حبيب شاب في الموضوع، فضحكت منها كثيرًا وأخبرتها بقصة الرحلة التي فاجأني بها أبي يوم أمس والكتاب الذي أهداه لي فهزت رأسها بخيبة وقالت:

- يا لك من صديقة سيئة! تجعليني على نار منذ أول اليوم ثم في النهاية تخبريني أنك كنتِ تقصدين أباك.

- هذا حتى تتوقفين عن الفضول.

شعرت أنها أخذت في نفسها من وصفي لها بالفضولية فاعتذرت منها وسألتها أن ترافقني لنخرج إلى الاستراحة معًا، تمنعت في البداية لكني تمكنت من إقناعها وأخذها معي ودعوتها للطعام على حسابي.

مرت الأيام وانتهى الشهر الأول من الفصل الدراسي الثاني بدون أي جديد يذكر حتى سمعت خبرًا من إحدى الفتيات ذات صباحٍ أصابني بالقشعريرة في بدني وشعرت بالصدمة منه، كانت تخبر رقية وأنا معها، قالت إن صديقتها تعرضت للابتزاز من شاب قام باختراق هاتفها وأخذ صورها التي كانت فيها، وهددها بأن ينشر صورها إذا لم تفعل ما يريده منها، حقيقة لم أتخيل أن أسمع خبرًا كهذا في يوم من الأيام، كيف حملته نفسه على تهديد فتاة ومحاولة استغلالها بهذه الطريقة المقززة؟ ألا يخشى أن يحصل ذلك لأحد من أهله؟ لكني عدت وسألت نفسي قائلة: لكن منذ الأساس ما الذي جعل تلك الفتاة تلتقط صورًا لنفسها حتى تمنح غيرها ذريعة بأن يقوم باستغلال تلك الصور ضدها؟ ما هذا الفكر الذي حملها على فعل مثل هذا الشيء؟ الذي أعرفه أن هذه الظاهرة تحدث للمرة الأولى أو هكذا كنت أعتقد حتى سمعت تلك الفتاة تقول:

- هذه ليست المرة الأولى التي تحدث مثل هذه القصص.

استغربت من قولها وسألتها:

- ماذا تعنين بأنها ليست المرة الأولى؟ هل سبق وتعرضت فتاة للابتزاز بصورها من قبل؟

- بالتأكيد، حدث ذلك أكثر من مرة، وكان السبب الأول في معظم تلك المرات هو سذاجة الفتاة.

- لم أفهم.

- هي التي تقوم بإرسال الصور إليه بذريعة أنه يحبها وهي تحبه، وأنه...

قاطعتها والدهشة تعصف برأسي:

- لحظة واحدة! هل قلتِ إنها هي التي ترسل الصور إليه؟

- نعم، تفعل ذلك بملء إرادتها، بل إنها تغضب منه إذا لم يطلب منها صورة.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- هكذا يفعلون بذريعة الحب.

- هذا ليس حبًا، ولن يكون كذلك أبدًا.

ختمت كلامها بقولها:

- ربما يكون معك حق، وربما يكونون يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم لا يفعلون الصواب، لكن مع ذلك لا يتوقفون عن فعله.

ما سمعته للتو من هذه الفتاة كان أكبر من قدرتي على التخيل والتحمل، كيف يجرؤ أدعياء مثل هؤلاء أن يسيئوا إلى جمال الحب وقدسيته بهذا الأفعال الدنيئة المقيتة، الحب أكرم من أن يتسبب في إيذاء أحد، الحب قيمة إنسانية راقية نبيلة لا تحمل صاحبها على الإساءة إلى الشخص الذي يحبه أبدًا، الحب

يعرف الأبواب فقط وهو لا يعرف شيئًا عن تسلق الجدران أو النوافذ، لكن للأسف الشديد أساء هؤلاء الأدعياء استخدامه فأفسدوا به وشوهوه.

تم تكليفنا من قبل الدكتور طه محاضر مقرر فن التأليف والكتابة بالذهاب إلى المكتبة واختيار كتاب من أمهات الكتب القديمة وأن نقوم بقراءته ثم كتابة مقدمة مناسبة لذلك الكتاب، كانت المرة الأولى لي التي أحول في كتابة شيء غير الواجبات التي اعتدت على حلها، هذه هي أول تجربة لي في الكتابة الإبداعية وأردت أن أستغلها بالشكل الأمثل وتطبيق ما أعطي لنا في محاضرة هذا الأسبوع عن كيفية كتابة المقدمات، ذهبت إلى المكتبة في تمام الساعة العاشرة صباحًا وكانت شبه فارغة من القرَّاء، أخذت جولة بين رفوف الكتب التي كان عددها قرابة أربعين رفًّا مقسمة بألواح خشبية عرضية، يصل ارتفاع الرف الواحد منها إلى مترين، وأما عرضه فقرابة العشرة أمتار، وبعد طول تجوال وجدت كتابًا قررت أن أطبق عليه، كان الكتاب يبدو بحالة جيدة بعد أن تم تجليده، عنوانه أدب الكاتب لابن قتيبة، جذبني العنوان وتذكرت كلام الدكتور طه عنه في المحاضرة؛ إذ أنه يعتبر أحد مصادر المقرر المهمة فقلت بأني سأضرب عصفورين بحجر واحد، سأعد التكليف المطلوب مني وأستزيد من معلومات الكتاب لأسبق زملائي وزميلاتي ببضعة خطوات في المقرر.

أمضيت أسبوعين كاملين في قراءة الكتابة وكتابة مقدمة رأيت أنها مناسبة له، ثم قمت بتسليم التكليف إلى الدكتور فأخبرني أني أول شخص يسلِّم التكليف، وهنأني لاختياري أدب الكاتب فشكرته ثم اتجهت إلى القاعة، وجدت أنهم يخططون لفعل شيء ما وكل واحد يبدي رأيه، سألت رقية فقالت إنهم يريدون زيارة المجمع اللغوي وهم الآن يتناقشون في كيفية جعل الزيارة مثمرة وممتعة في الوقت نفسه، أخبرتها أني لن أذهب معهم، فسألتني عن السبب، فقلت لها إني لا أحب الرحلات كثيرًا وسآخذ اليوم إجازة أرتاح فيها في البيت، قالت:

- سنتحدث في ذلك لاحقًا.

قرأت في عينيها أنها لن تدعني وشأني وستفعل أي شيء لتجعلني أذهب معهم.

(9)

رقية

أخبرتني سلمى بأنها لن ترافقنا إلى المجمع اللغوي وستتغيب يوم الرحلة فلم ألقِ بالاً لكلامها لأني واثقة من إقناعي لها لكن عليَّ الآن أولاً إبداء رأيي في النقاش الدائر حول خطتنا ليوم الرحلة، أخبرتهم أننا يجب أن نختصر الاقتراحات الكثيرة التي طرحت والاكتفاء بثلاثة إلى أربعة لنتفق عليها، وافقني مجموعة من الطلبة الرأي، فاتفقنا أن نتحرك من الكلية في تمام الساعة التاسعة فنذهب أولاً إلى المجمع اللغوي فنحضر المناقشة حول بعض التراكيب الدارجة التي أصابتها بعض الظواهر اللغوية فتوهم الناس بأنها ليست فصيحة، ثم ستكون وجهتنا التالية معمل اللسان العربي لنتعرف على بعض اللهجات العربية القديمة الفصيحة التي لم تعد مستخدمة في عصرنا، وننهي يومنا بتناول طعام الغداء الذي تكفل الطلاب بترتيبه في قلعة القناديل الفضية الجميلة، اتفقنا على خط سير الرحلة وعرف كل واحد منا المهمة الموكل بها، حيث ستكون مهمة مندوب الدفعة وأربعة طلاب آخرين ترتيب الباص الذي سيأخذنا وطعام الغداء،

ومهمة عارف إقناع الدكتور عيسى أو الدكتور طه بمرافقتنا في الرحلة، ومهمتي مع بعض الفتيات تحضير الحلويات والمقبلات.

بعد انتهائنا من توزيع المهام خرجت أبحث عن سلمى التي غادرت القاعة بدون أن أنتبه لها فوجدتها في المصلى مستندة بالجدار وبين يديها كتاب جذبني غلافه، جلست بجوارها ثم سألتها عن سبب مغادرتها للقاعة فقال إنها شعرت بالصداع من نقاشنا الذي يتخلله ارتفاع بعض الأصوات، أخبرتها بأننا اتفقنا على أن تكون الرحلة الثلاثاء القادم فقالت:

- جميل! إذن سيكون الثلاثاء القادم راحة لي من حرارة شمس المدينة.

- ومن قال إنه سيكون راحة لك؟

- لأني لن أرافقكم كما أخبرتك قبل لحظات.

- بل ستأتين؛ لأني لن أسمح بأن تفوتك الفائدة والمتعة التي ستحصل في هذا اليوم.

- أرجوك لا تضغطي عليَّ.

- كما تشائين، لكن عليك أن تعلمي أني سأخاصمك إن لم تحضري.

- لا تكوني طفلة يا رقية.

- أخبرتك بما لدي.

- حسنًا سأفكر، لكني لا أعدك.

- كما تشائين.

أظهرت لها أني سأخاصمها بشدة إذا لم ترافقنا إلى الرحلة؛ لأني أرغب في جعلها تخرج من جو الجامعة الروتيني وترفه عن نفسها قليلاً، وأعتقد بأني قد نجحت في إقناعها؛ لأنها عندما تقول سأفكر فهذا يعني بنسبة كبيرة جدًا أنها موافقة، حاولت تغيير الموضوع حتى تشعر أني أفرض ضغطًا نفسيًا عليها ويتسبب ذلك في رفضها؛ فسألتها عن الكتاب الذي بين يدها فأخبرتني أنها رواية خيالية تتحدث عن ثلاث ممالك قديمة ابتكرها الكاتب، وعن أثر القراءة في تكوين شخصية الإنسان وأنها ضرورة لحياة عقله فتشوقت للحصول عليها، ثم استأذنتها بإلقاء نظرة على الكتاب فابتسمت ومدت به نحوي، قراءة عنوان الرواية (ابنة البستاني) فقلت لنفسي ما علاقة العنوان بما تحدثت عنه سلمى قبل لحظات أم أن هناك دلالة أراد المؤلف أن يوصلها؟ سألتها عن ذلك فقالت عندما تقرئين ستعرفين ذلك بنفسك، لا أريد حرق الأحداث عليك، طلبت منها أن تعيرني الكتاب فقالت إنها ستفعل بعد أن تنتهي منه فلم يبقى معها سوى أربعين صفحة فقط، قلت بفرحة:

- إذن غدًا سآخذه منك.

- إن شاء الله.

مضت الأيام سريعة واقترب موعد رحلتنا فتأكدنا من أن كل شيء يسير وفق الخطة سوى أن الدكتور حامد محاضر مقرر الصرف سمع عارف وهو يطلب من الدكتور عيسى الحضور فسأله

عن رحلتنا ومن الذي سيرافقنا فيها وهل سنرغب بانضمامه إلينا فاضطر عارف لدعوته خصوصًا بعد اعتذار الدكتور طه عن المجيء، شعر الكثير من الطلبة بالانزعاج لانضمام الدكتور حامد إلى الرحلة؛ إذ أنه ليس محبوبًا من قبل الطلبة بسبب أسلوبه الممل في الشرح، وعدم قدرته على إيصال المعلومات بالشكل المطلوب إضافة إلى أن شخصيته من النوع الذي يرى نفسه على صواب دائمًا وهذا ما يثير استفزاز الكثير من الطلبة وأنا منهم بالطبع، كنا سنعاتب عارف على دعوة الدكتور حامد لكن الذي منعنا من ذلك هو معرفتنا الشديدة بهذا الدكتور، الذي إذا لم يقم عارف بدعوته فإنه سيحاول بشتى الطرق أن يتسبب في إلغاء رحلتنا.

وفي يوم الرحلة قبل تحرك الباص من الكلية أعدنا على الجميع خط سير الرحلة مزمنًا حتى لا يتسبب أي أحد بإفساد ما خططنا له وليمضي اليوم بأروع ما يمكن، لم يكن هدف المندوب بهذا الفعل تذكير الطلبة أو إخبارهم بما سنفعله لأن الجميع يعرف ذلك منذ أول يوم اجتمعنا فيه داخل القاعة لكن الهدف كان إخبار الدكتور حامد بطريقة غير مباشرة حتى لا يفسد يومنا، جلس الجميع في مقاعدهم، الفتيان في المقدمة والفتيات في المؤخرة وتحرك بنا الباص، سلك الطريق الداخلي لنمكن من الوصول قبل موعد بدء المناقشة التي ستبدأ التاسعة والنصف لكننا علقنا في ازدحام مروري تبعته بعض الحفر المتناثرة على وجه الطريق فعاتب المندوب السائق على اختياره لهذا الطريق؛ لأنه لو

سلك الخط العام لتمكنا من الوصول بسرعة، اعتذر منه ووعده بألا يجعلنا نتأخر عن موعد المناقشة، وصلنا إلى المجمع اللغوي في تمام التاسعة والنصف فخرجنا من الباص بسرعة حتى لا يفوتنا شيء وعندما دخلنا وجدنا أنهم لم يبدؤا بعد بسبب خلل في نظام الصوت، حمدت الله على ذلك واتخذت لي مقعد في منتصف القاعة في الصف الخامس من الكراسي وجلست سلمى بجواري، وبعد خمس دقائق من جلوسنا بدأ الأستاذ دكتور نجيب رئيس المجمع اللغوي حديثه مرحبًا بالجميع ومعتذرًا عن التأخير الذي حصل بسبب خلل غير متوقع في نظام الصوت ثم أعلن بدء المناقشة، تحدث الدكتور فاضل عن التركيب الأول (صِنِّع الباب) وعن كونه منحوت من التركيب (صُنْ عنَّا الباب) وشرح ذلك شرحًا وافيا ثم أكمل الحديث الدكتور علي موردًا بعض الشواهد من اللغة التي تؤكد ما تفضل الدكتور فاضل بذكره عن ظاهرة النحت بشكل عام وعن هذا التركيب الآنف بشكل خاص، ثم فتح باب المداخلات لإثراء الموضوع فقام شخص لم أسمع اسمه بشكل جيد وأبدى اعتراضه على شاهدين ذكرهما الدكتور علي فناقشه الدكتور في قوله حتى تمكن من إقناعه، كانت المناقشة على مستوى كبير من الروعة والجودة وأضافت لي الكثير من المعرفة، انتبهت إلى مدى انسجام سلمى فقربت فمي من أذنها وقلت:

- ما رأيك؟

-في الحقيقة لم أتوقع أن تكون المناقشة بهذا الجمال وإلا كنت أول من يوافق على الرحلة.

-ما زال اليوم في بدايته، لكن لا تنسين أن تشكريني عندما نعود إلى الكلية ظهرًا.

ضحكت من كلامي وطلبت مني أن أقوم لأن الجميع بدأوا بالخروج من القاعة، ركبنا الباص فتحرك بنا شرقًا إلى معمل اللسان العربي وفي الطريق إليه أخذ الدكتور حامد يلقي علينا بعض الفوائد التي أغفلها المتحدثون في المناقشة وكان حري بهم ألا ينسوها فتبادلنا النظرات بأنها لن يتوقف عما يقول حتى يخبره أحدهم بأنه محق، لكن ما لم أتوقعه أن يباغته مبارك بقوله:

-لماذا لم تداخل بهذه الفوائد يا دكتور في المناقشة؛ لأنها كانت ستضيف الكثير للجميع.

-كنت سأفعل ذلك لكني رأيت أن الوقت لا يتسع لذلك.

رأيته يغمز عارف عندما سكت الدكتور حامد عن الحديث بعدما أجابه والأكيد أنه أحرج من هذا السؤال الذي لم يتوقعه، ضحكت حينها في سري عليه، ولمحت أن الجميع شعر بارتياح بعد أن تفضل علينا بسكوته.

وصلنا إلى وجهتنا التالية فدخل الجميع إلى المعمل وكان ذلك في قرابة الساعة الحادية عشرة، كان في استقبالنا الدكتور

ناصر مدير المعمل وأخذنا في جولة ممتعة تعرفنا فيها على خمس لهجات قديمة كانت القبائل العربية تتحدث بها ثم أتاح لنا فرصة التحدث بهذه اللهجات فكانت تجربة فريدة من نوعها، خرجنا من المعمل بعد أن شكرنا الدكتور ناصر على منحنا قدر كبيرًا من وقته فأخبرنا بأنه سعيد بزيارتنا ويريد منا تكرارها فأخبره الدكتور عيسى بأننا سنزورهم مرة أخرى أما الدكتور حامد فكان ساكتًا تمامًا، توجهنا إلى قلعة القناديل الفضية فوجدنا المندوب والشباب الذي برفقته قد سبقونا إلى المكان وجهزوا كل شيء سنحتاج إليه هناك، كما أنهم أحضروا الغداء أيضًا.

قدمنا المقبلات للجميع بمساعدة المندوب والشباب الذين معه ثم قاموا هم بتقديم الغداء لنا، وبعد أن انتهينا من طعام الغداء وكان ذلك تقريبًا الساعة الثانية عشرة ظهرًا طلبت من الفتيات أن يساعدنني في تقطيع الحلويات وسكب الشاي في الفناجين ثم قمنا بتقديمه للفتيات في الغرفة التي نجلس فيها، وقام المندوب بتوزيعه على الشباب في الغرفة الأخرى.

عدنا إلى الكلية في تمام الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة والجميع في غاية السعادة والاستمتاع باستثناء الدكتور حامد الذي يبدو أنه ندم على مرافقتنا في هذه الرحلة التي ستكون الأخيرة له معنا حسب ما أعتقد.

(10)

عارف

عندما بدأ الدكتور حامد بسرد ما رأى أنهم أغفلوه في المناقشة نظرت إلى مبارك في الجهة المقابلة لكرسيي ورأيت أنه يزفر بضجر ثم ألقى بسؤال كالصاعقة لم نسمع بعده صوت الدكتور حامد ثم غمز لي، التفت نحو الدكتور عيسى فرأيته يكتم ضحكته وهو يهز رأسه يمنة ويسرة.

كانت وجهتنا الثانية في الرحلة هي معمل اللسان العربي، وهي أكثر ما استمتعت به في هذا اليوم خاصة عندما تحدثت مع بعض الزملاء بلهجتي الكشكشة وأكلوني البراغيث، طلبت من الدكتور عيسى أن يشاركنا التجربة فأجابني إلى ذلك وأجرينا محادثة بالطمطمانية وهي لجهة يتم فيها إبدال لام التعريف ميمًا والطلبة يستمعون إلينا وبعضهم يضحك، وبعد أن انتهينا من جولتنا في المعمل توجهنا إلى القلعة حيث أخبرني المندوب أنه ينتظرنا هناك وقد قام بتجهيز كل شيء باستثناء الكؤوس البلاستيكية الخاصة بالشرب فقد نسي أن يحضرها فخرجت إلى إحدى المحلات القريبة من المعمل واشتريت ما سيفي بالغرض من الكؤوس ثم انضممت إلى الجميع قبل أن يصعدوا إلى الباص.

جعلنا عمر نضحك إلى درجة البكاء من الطرف التي كان ينعش بها جلستنا، كنا نجلس في شرفة مطلة على حديقة غنَّاء يطيب النظر إليها، وأكثر من ملء عينيه وفؤاده بهذا المنظر صديقي مبارك الذي أمضى نصف الوقت تقريبًا بالتأمل والتمعن في تفاصيله، وعندما انضم إلينا لتناول الغداء قلت له:

- هل ننتظر لوحة بعد عودتنا.

- ربما.

لاحظت أن الدكتور حامد ما زال منكمشًا على نفسه منذ وصولنا ولا يتكلم إلا بجمل مقتضبة يلقيها على من يحادثه وهذه ليست عادته، أعتقد أن السبب فيما هو فيه الآن سؤال مبارك الذي رجمه به في طريقنا إلى المعمل، نظرت إلى مبارك وأشرت برأسي إلى الدكتور فلم يفهم قصدي فقلت له:

- عليك أن تعتذر منه؛ فقد قمت بإحراجه.

- لم أفعل شيئًا، أحرجه غروره يا صديقي.

- يعني؟!

- يعني أن تدعني أكمل طعامي بسلام.

- لا فائدة في الحديث معك.

هز كتفيه بلا مبالة وأكمل طعامه، أما أنا فشعرت ببعض الحزن على الدكتور حامد، وربما سيحملني السبب لكوني من قمت بدعوته، ولكنه هو الذي أوقعني في هذا المأزق واضطرني

لدعوته، عليَّ ألا أفسد يومي بالتفكير في هذا الأمر فأنا لا أجد مثل هذه الرحلات كل يوم.

وصلت إلى السكن الطلابي في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق تقريباً فاستغربت الأصوات المرتفعة القادمة من الداخل، لم أنتظر أن يصل إليَّ مبارك الذي كان يمشي ببطء شديد ودلفت إلى الباحة الأمامية فوجدت أن الطلاب محتشدون أمام الباب الداخلي للسكن ويبدو أن شجارًا محتدمًا يحدث هناك، اقتربت من الحشد وحاولت فهم ما يحدث لكني عجزت عن ذلك إذ كانت الأصوات مرتفعة ولا يفهم منها أي شيء واضح، لكن الذي تبين لي أخيرًا أن الطباخ قام بحرق الغداء بغير قصد وكل هذا الهيجان بسبب ذلك.

وصل مبارك أخيرًا فرأى تجمهر الطلاب أمام الباب الداخلي للسكن، لكنه لم يهتم بالأمر واتجه إلى مكان في الجهة اليسرى من الفناء يستظل به حتى ينفض هذا الحشد ويتمكن من الدخول إلى الغرفة، ذهبت نحوه وعلمت أنه لن يسألني عما حدث؛ لذا بادرت وأخبرته بما علمت حول الشجار، رفع رأسه نحوي وقال بضحك:

-المهم أننا لن نضطر إلى تناول هذا الغداء المحروق.

ضحكت من كلامه ووافقته فيما قال، ثم جلست بجواره حتى انفض الجمع وتمكننا من الدخول إلى الغرفة، استلقى على

سريره فور دخوله فذكَّرته بأننا لم نصلِ الظهر بعد، فقام يستعد للصلاة ثم ذهبت بعده وتوضأت وصلينا الظهر جماعة في الغرفة.

مضى أسبوع ونصف قبل أن تمتلئ جدران الكلية بملصقات الطلبة الذي يريدون الانضمام إلى المجلس الطلابي، قرأت الأسطر التعريفية والوعود التي يقدمونها للطلبة، ذكرتني تلك الوعود بالمسؤولين الذي ثقبوا رؤوسنا بوعودهم قبل الانتخابات الماضية ثم عندما وصلوا واستقام لهم الأمر مشوا على طريق أسلافهم في تلك المناصب حذو القذة بالقذة بل ربما زادوا عليهم في استغلال مناصبهم من أجل مصالحهم الشخصية، اقترب مني مبارك وأنا أقف أمام أحد تلك الملصقات وقال:

- هل تريد أن تترشح؟

- لا.

- لماذا؟ أنت أنسب شخص للمجلس.

- لا أحب أن أزيد الثقل على نفسي؛ أوزاري تكفيني وزيادة.

- كلام كبير.

- دعك من هذا الآن وأخبرني برأي الشباب في اقتراح مذاكرة النحو.

- جميعهم رحبوا بالفكرة وأتيت لأخبرك بأننا سنبدأ المذاكرة منذ الليلة.

ذهبنا إلى القاعة فوجدنا طلبة آخرين غير زملائنا وعندما سألناهم أخبرونا أنه حدث تبادل قاعات وزملائنا في القاعة رقم سبعة، أسرعنا حتى لا نتأخر عن المحاضرة فيرفض الدكتور إدخالنا، وصلنا مع وصول الدكتور فدخلنا قبله واضطررنا إلى الجلوس في الكرسي الأمامي بعد أن امتلأت كراسي الوسط والمؤخرة، العادة في محاضرة الإملاء أن يبدأ الطلبة بالجلوس من الخلف إلى الأمام ويكون الأسوأ حظًا هو ذلك الطالب الذي يأتي متأخرًا قليلاً عن باقي الزملاء لأنه سيضطر إلى الجلوس في الكرسي الأمامي وسيعاني طوال ساعتين متواصلتين من صوت الدكتور سعيد الذي يثقب الأذن من ارتفاعه، يبدو أنني سأحتاج إلى مسكن للصداع بعد انتهاء المحاضرة، نظرت إلى أصحاب الكراسي الخلفية فوجدت بعضهم يضع قطنًا في أذنه فضحكت منهم ثم اعتدلت في جلستي عندما بدأ الدكتور بالحديث.

انتهى أسبوع انتخابات المجلس الطلابي وبدأ أسبوع مسابقات الإبداع الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر منذ بداية الفصل الدراسي الثاني لأشارك في مسابقتي القصة القصيرة والإلقاء، أشعر أني سأحقق مراكز متقدمة في هاتين المسابقتين فأنا شغوف بهما وربما يوفقني الله للفوز بأحدهما أو كليهما، لم أكن الوحيد الذي يترقب هذه المسابقات؛ إذ أني سمعت مبارك يهذي برغبته في تحقيق لقب أفضل رسَّام في الجامعة منذ أول مرة عرض فيها رسوماته في القاعة، رأيت النشوة التي غمرته وهو يستمع إلى إطراء الطلبة والدكتور عيسى، يبدو اليوم مختفيًا ولا

أثر له في الجامعة بحثت عنه كثيرًا فلم أجده حتى أنه لا يجيب على اتصالاتي، وجدني عند أحد ملصقات المسابقات فسألته عما إذا كان مستعدًا للمشاركة، فأخبرني أنه قد سجل اسمه في مسابقة الرسم منذ الصباح ولوحته التي سيشارك بها قد قارب على الانتهاء منها، ضحكت من اندفاعه ورغبته التي تجاوزت رغبتي بالمشاركة، ثم سألته عن مكان التسجيل في المسابقات فأخبرني أن أذهب إلى مكتب المجلس الطلابي وأخبرهم باسمي والمسابقة التي أرغب بالمشاركة فيها، طلبت منه أن يرافقني فاعتذر بأنه مستعجل ويريد الذهاب إلى السكن الطلابي بأقصى سرعة، سألته عن السبب فقال إنه يريد إكمال لوحته قبل انتهاء الدوام مستغلاً هدوء الغرفة في هذا الوقت تحديدًا، هززت رأسي وتوجهت إلى مكتب المجلس الطلابي.

(11)

مبارك

بكرت في الذهاب إلى الكلية بعد أن قرأت في موقع الجامعة خبرًا عن منافسات الإبداع الطلابي، دخلت إلى الباحة فوجدتها خاوية تمامًا حينها نظرت إلى ساعتي التي كانت تشير إلى السادسة وخمسين دقيقة، ضحكت على تلهفي واستعجالي للحضور في هذا الوقت المبكر، تجولت قليلاً في الباحة ثم جلست على أحد المقاعد الخشبية أمام شجرة زينة تفنن أحدهم في تشذيب أطرافها وجعلها تبدو كالكتاب، بقيت في جلستي تلك قرابة النصف ساعة قبل أن يبدأ بعض الطلبة بالتوافد، ذهبت إلى مكتب المجلس الطلابي ووقفت بجواره منتظرًا أن يقوم أحد بفتحه لأسجل اسمي في مسابقة الرسم التي ستكون بعد ثلاثة أيام من اليوم، أعتقد أنها مدة كافية جدًا لأتمكن من إبداع لوحة تحقق المركز الأول في المسابقة.

حضر أخيرًا سكرتير المجلس وقام بفتح الباب فوجدني أدلف خلفه مباشرة، لم أمنحه فرصة لأخذ نفسه وسألته عن التسجيل في مسابقات الإبداع الطلابي، طلب مني أن أنتظر قليلاً ريثما يقوم بطباعة الأوراق ثم سيسجل اسمي والمسابقة التي

أريد التقديم فيها، جلست على الكرسي وأمضيت سبع دقائق من الانتظار، حسبتها ثانية ثانية حتى رأيته يتناول قلمًا من الدرج ويسألني عن اسمي، أخبرته باسمي وطلبت منه أن يسجلني في مسابقة الرسم، فقال لي إن الأعمال المشاركة في المسابقة لا بد أن تكون جاهزة وتسلم إليهم بعد يومين كحد أقصى لتعطى إلى لجنة التحكيم من أجل تقييمها، أخبرته أن رسمتي ستكون جاهزة بحلول الغد ثم شكرته وغادرت إلى القاعة، كانت ما تزال فارغة فاستفدت من هدوئها في محاولة الحصول على فكرة رسمة مميزة، كتبت بعض الاقتراحات ثم جعلت أفاضل بينها حتى تمكنت أخيرًا من الاختيار.

علمت من المندوب أن الدكتور أبوبكر اعتذر عن محاضرة اليوم وسيكون لدينا فراغ حتى الساعة الحادية عشرة، حمدت الله على هذه الفرصة الثمينة التي منحت لي وقررت البدء في لوحتي منذ الآن، ذهبت إلى السكن الطلابي فوجدته شبه فارغ فدخلت إلى الغرفة وكان الجميع قد غادرها باستثناء عبد العزيز الذي لا توجد عنده محاضرات هذا اليوم، أخرجت أدواتي من تحت السرير وبدأت بالرسم في سكون لا يشوبه سوى صوت المكيف الذي يطن في أذني، انتهيت من جزء كبير من اللوحة ثم قررت أخذ بعض الراحة والذهاب إلى الكلية لأرى عارف حيث أني وجدت منه الكثير من المكالمات الفائتة على هاتفي لم أنتبه لأي منها؛ لأنه كان صامتًا، بحثت عنه في الباحة فلم أجده فقررت أن أذهب إلى الكافتيريا لعلي أجده هناك ونتناول شيئًا

فما زلت صائمًا منذ الصباح، لم أعثر عليه هناك فطلبت لنفسي شطيرة بيض وعصير برتقال، تناولت طعامي ثم قمت أتجول في الأروقة فرأيته يقف أمام أحد ملصقات منافسات الإبداع الطلابي، اقتربت منه فأخبرني أنه كان يبحث عني فلم يجدني وحاول الاتصال بي أكثر من مرة لكنه عجز أيضًا في الوصول إليَّ فأخبرته أني لم أنتبه للمكالمات، سألته عن سبب وقوفه أمام ذلك الملصق فأخبرني أنه يرغب بالتسجيل في المنافسات وحثني على التسجيل أيضًا فضحكت منه وأخبرته أني قد سجلت منذ الصباح الباكر، دللته على مكاني التسجيل داخل الكلية ثم قلت له بأني مضطر للعودة إلى السكن لأتم لوحتي، استغرب بأني قد بدأت فيها بالفعل، فقلت له وأنا ألوح له:

- سأجعلك تراها فيما بعد.

- حسنًا، أراك لاحقًا.

- إلى اللقاء.

ذهبت إلى السكن الطلابي فوجدت باب الغرفة مغلقًا فبحثت عن المفتاح في جميع المخابئ التي اعتدنا وضعه فيها فلم أجده، اتصلت على عبد العزيز لأسأله عن المكان الذي وضعه في فأخبرني أنه يجلس في الغرفة المجاورة وسيحضر المفتاح لي، لم أنتظر مكاني وإنما ذهبت إليه فوجدته ما زال جالسًا يتحدث ويبدو أنه نسيني فأخذت المفتاح واتجهت إلى الغرفة.

انتهيت من رسم اللوحة التي كانت تصف مشهدًا مأساويًا لطفل بائس في الخامسة من عمره تم قطع حنجرة أمه أمامه وهي تمد كسرة خبز نحو فمه، نظرت إلى ساعة يدي فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة إلا ثلاث دقائق، أمسكت اللوحة بكلتا يدي وأطلت النظر إليها، تفحصتها جيدًا لعلي أجد ما يعيبها فلما اطمأنت نفسي إلى أنها أصبحت جاهزة للمسابقة قمت بتغليفها بورق الجرائد الذي أمتلك الكثير منه أسفل سريري ثم أعدت أدواتي إلى مكانها وذهبت باللوحة إلى الكلية.

وجدت مكتب المجلس الطلابي مغلقًا فاضطررت إلى الوقوف بجوار الباب حتى يأتي أحدهم وأسلمه لوحتي، كان الجميع يحدق إلى ما بيدي وبعضهم تشجع لسؤالي عنه فكنت أجيبهم بأني سأشارك في مسابقة الرسم، تذكرت أني وعدت عارف بأن أريه اللوحة عندما أنتهي منها لأني كنت أعتقد أنها لن تنتهي قبل المساء، بالتأكيد سأجد ما أقوله له لأعتذر منه، وسيراها بعد ثلاثة أيام في المسابقة، بدأت أشعر بالتوتر منذ الآن حيال ما سيقوله المحكمون حول لوحتي، أخذ نفسًا عميقًا وأطلقته، أعدت الأمر أكثر من مرة حتى شعرت ببعض التحسن.

تعبت من الوقوف مكاني فقررت أن أجلس في الدرجة المجاورة للباب، صحيح أني سأتسبب بإعاقة حركة بعض المارة لكني مضطر، بقيت في مكاني قرابة الربع ساعة قبل أن تأتي فتاة وتفتح باب المكتب، طرقت الباب ودخلت خلفها ثم أخبرتها بأني سجلت اسمي صباح هذا اليوم في مسابقة الرسم وأتيت الآن

لأسلِّم لوحتي التي سأشارك بها، أخبرتني أنها لن تأخذ اللوحة مني لأنها ليست المكلفة بذلك وعليَّ أن أنتظر مجيء السكرتير أو رئيس المجلس ليأخذها أحدهما، كانت تتحدث معي بطريقة أزعجتني كثيرًا فعدت إلى مكاني في الدرجة وأنا أقول في نفسي كيف يتم ترشيح واحدة مثلها لخدمة الطلبة وهي لا تمتلك أسلوبًا في الحديث.

بقيت في مكاني حتى انتهت المحاضرة وبدأ الطلبة بالخروج من القاعات، لمحت عارف وهو يمشي في الممر ولم يتنبه لي فأشرت بيدي حتى رآني وأتى نحوي، سألني عن سبب جلوسي في هذا المكان فأخبرته أني انتهيت من اللوحة ولم أقدر على الانتظار حتى الغد لأقوم بتسليمها، قال لي معاتبًا:

- ولكنك وعدتني بأن أراها قبل تسليمها!

- اعذرني يا صديقي فلم أستطع الصبر.

- لماذا لم تسلمها حتى الآن إذن؟

- رفضت الفتاة التي في الداخل أن تأخذها مني وطلبت أن أنتظر حتى يأتي السكرتير أو رئيس المجلس.

انتظر عارف بجواري حتى حضر السكرتير فقمنا بتسليمها له وغادرنا إلى السكن الطلابي، صلينا الظهر وجلس يسألني عن الفكرة التي تحملها اللوحة فأخذت أخبره بكل شيء عنها، كان الجميع يستمعون إلى حديثي عن اللوحة وأخبروني أنهم متشوقون لرؤيتها ولسماع رأي لجنة التحكيم فيها، أخبرني خالد أن أستعد

للفوز منذ الآن لأنه يعتقد ألا أحد يمكن أن يصل إلى مستوى التفاصيل التي ذكرتها لهم عن اللوحة، فأسعدني كلامه وأعطاني أملاً في الفوز.

أتى يوم المسابقة وكان التوتر واضحًا عليَّ منذ الصباح، ذهبت برفقة عارف فأخذني إلى الكافتيريا لنأكل شيئًا فأخبرته أني لست جائعًا فطلب مني ألا أقلق لأنها لن تكون آخر مسابقة لي، وكل ما عليَّ فعله هو الاستمتاع بالتجربة والاستفادة من الملاحظات التي ستقولها اللجنة عن اللوحة، هززت رأسي موافقًا وشكرته على كلامه الإيجابي، توجهنا إلى القاعة التي ستقام فيها مسابقة الرسم واخترنا لنا مقعدين في وسط القاعة قبالة طاولة لجنة التحكيم في المنصة.

كانت لجنة التحكيم مكونة من الأستاذ دكتور علاء أستاذ الأدب الحديث في الجامعة رئيسًا، والدكتور ياسين رئيس قسم الديكور في المسرح الوطني التابع لمكتب وزارة الثقافة بالمحافظة، والأستاذ عمر رسَّام وفنان تشكيلي، كنت أجلس في مقعدي بترقب وأنا أستمع إلى ملاحظات اللجنة على اللوحة الأولى التي أعتقد أن صاحبها أهمل الكثير من التفاصيل التي كانت ستزيد من حظوظه في هذه المنافسة، شعرت أن ملاحظات رئيس اللجنة لم تكن ذات قيمة كبيرة؛ إذ بدت سطحية إلى حد كبير ويمكن لأي شخص في الشارع أن يقولها، أما ملاحظات الدكتور ياسين والأستاذ عمر فقد كانت أكثر دقة وتخصصية.

حان دوري للاستماع إلى ملاحظاتهم حول لوحتي التي سميتها الظلال الرمادية، وقف الأستاذ عمر عدة وقفات عند العنوان وأشار إلى دلالات لم أكن أدركها حتى عندما اخترته للوحة، لكنه انتقد استخدامي لبعض الألوان التي رأى أنها حدت من روعة اللوحة بعض الشيء، تبعه الدكتور ياسين وأكد على ما قاله بشأن اختيار الألوان غير أنه أثنى على شجاعتي في اختيار هذه الفكرة التي تبعث على الدهشة وهي غارقة في الرمزية على حد قوله، أما رئيس اللجنة اكتفى بأن قال إنها لوحة جميلة وأعجبته.

واصل أعضاء اللجنة في إعطاء الملاحظات على باقي اللوحات المشاركة وقاموا بوضع النقاط المناسبة لها جميعًا، كان هناك صوت بداخلي يخبرني بأني سأحقق مركزًا متقدمًا بعد الإطراءات الكثيرة التي لم يحظَ غيري بنصفها من باقي زملائي وزميلاتي المشاركين في المسابقة، وأكَّد هذا الصوت الداخلي عارف عندما اقترب من أذني وقال:

- المركز الأول من نصيبك، أنا واثق من ذلك.

حاولت أن أبتسم له لكني لم أستطع بسبب التوتر الذي عاودني مرة أخرى في تلك اللحظة عندما أمسك رئيس اللجنة بمكبر الصوت وقال:

- سنعلن الآن عن اسم الفائز بمسابقة الرسم لهذا العام الجامعي.

حبست أنفاسي ونظرت إليه بكل جوارحي، ودعوت الله في داخلي أن أسمعه يذكر اسمي، سكت قليلاً ونظر إلى زميليه في اللجنة فارتفع منسوب التوتر عندي، شبكت بين أصابع يدي وأخذت نفسًا عميقًا فسمعته يذكر اسم اللوحة الفائزة.

(12)

سلمى

خرجت من حفل زواج ابنة صديقة أمي منهكة جدًا، وودت لو أن الأرض تطوى تحتي فأصل إلى البيت بأقصى سرعة ممكنة لألقي بنفسي على فراشي وأغط في نوم عميق لا أفيق منها إلا في صباح اليوم التالي، كان بيت العرس يبعد عن بيتنا قرابة مئة وخمسين خطوة تقريبًا أو أكثر بقليل، عدت برفقة إحدى الجارات التي انتظرتني لنعود معًا بعد أن نصلي المغرب.

اقتربنا من البيت فرأينا حشدًا كبيرًا من الناس أمامه، ويبدو أن هناك أمر عظيم قد حصل خاصة عندما سمعت أحدهم يقول:

- الحمد لله أننا أدركناه في اللحظة الأخيرة.

رفعت رأسي محاولة رؤية شيء من فوق رؤوس المحتشدين فرأيت دخانًا عظيمًا ينبعث من بيتنا، والجدران يشوبها بعض السواد، حينها أصبت بالهلع وحاولت أن أشق لنفسي طريقًا بينهم وكل ما خطر ببالي حينها أن أبي عاد من عمله قبل العصر وأخبرني أنه سينام إلى المغرب وطلب مني أن

أوقظه عندما أعود من العرس، ماذا لو كان حدث له شيء؟ استعذت بالله وأنا أحاول إبعاد آخر شخص عن طريقي، حاولت الدخول إلى البيت لكن عمي صرخ بي وأمسك بيدي قبل أن أصل إلى البيت.

نظرت إليه بخوف منتظرة أن يطمئنني على أبي فأخبرني أنه لم يصب بأي حروق وهو بخير، ألقيت بنفسي في حضنه من الخوف وكأنني شعرت ببعض الراحة بعد أن سمعت أن أبي لم يتأذَ، تلفتُّ في الجوار باحثة عنه لكني لم أجده فسألت عمي والدموع تحتشد في عينيَّ:

- أين أبي؟ أنا لا أراه.

- ذهبت به إلى بيتي قبل قليل، وعندما سألت عنك في بيت العرس أخبروني أنك عدتِ على هنا.

- أخبرني الحقيقة يا عمي، هل أصابه شيء.

- لا شيء.

لم أتمكن من تصديق عمي لكني تمنيت من داخلي أن يكون محقًا، ذهبت برفقته إلى بيته وعندما دخلت سمعت صوت أبي وهو يسعل بشدة، انطلقت نحوه كالرصاصة وضممته إلى صدري وأنا أكاد أختنق من البكاء، مسح بكفه على رأسي وأخبرني أنه بخير، ولا يشكو سوى من هذا السعال الذي أصابه من دخان الحريق، بقيت أبكي بصمت في حضنه حتى هدأت قليلاً، ابتعدت عنه فنظر إلى عينيَّ اللتين كأنهما جمرتين وقال:

- لا تخافي يا ابنتي؛ أنا بخير.
- كيف حدث هذا؟
- لا أدري، استيقظت عندما شعرت بالحرارة فوجدت أن النار تلتهم كل شيء، لكن الحمد لله أني لم أتعرض لأي أذى.
- الحمد لله.

عجزت تلك الليلة عن النوم بسبب ما حدث وكلما أغمضت عيني رأيت منظر البيت وهو يحترق، بقيت مستيقظة حتى أذان الفجر، ذهبت لأتفقد أبي فوجدته نائمًا بهدوء فكرهت أن أوقظه، لكنه أحس بي عند خروجي وطلب مني أن أقترب منه، رأى الإرهاق في عينيَّ فعاتبني على عدم النوم، أخبرته أني حاولت النوم غير أني عجزت عن ذلك فمنظر البيت وهو يحترق لم يغب عن بالي لحظة واحدة، طلب مني أن أبقى بجوار فراشه إلى أن يعود، توضأ وعاد فوجد النعاس قد بدأ بمداعبة جفني فجلس عندي ثم وضع رأسي على فخذه وقرأ عليَّ بعض الآيات، شعرت براحة ولم أحس بنفسي إلا الساعة التاسعة والنصف عندما أيقظني.

- صباح الخير يا صغيرتي.
- صباح الخير يا أبي.
- كيف تشعرين الآن؟

- الحمد لله، بأحسن حال.
- قومي لتتناولي إفطارك وتساعدي زوجة عمك.
- كم الساعة الآن؟
- التاسعة والنصف، لم أوقظك باكرًا لأني أردتك أن تستريحي اليوم ولا تذهبي إلى الجامعة.

قبلته في خده وقمت من مكاني، ذهبت إلى المطبخ فوجدت زوجة عمي التي لا تطيق رؤيتي، لم تتحدث معي ولم ترد على تحيتي، كل ما قابلتني به هو نظرات تقول أنت غير مرحب بك في هذا البيت، لكني مضطرة على استضافتك فيه بعد احتراق بيت أبيك، شربت ماء وهممت بمغادرة المطبخ فسمعتها تقول:

- منذ اليوم ستكون مهمتك إعداد الطعام لنا، فأنا غير مجبرة على الطبخ لك ولأبيك.
- كما تشائين، سأفعل كل ما تطلبن مني.
- سيكون هذا أفضل تصرف تقومين به.
- حسنًا.

خرجت من المطبخ وأنا أقول في نفسي يبدو أن الأيام القادمة ستكون جحيمًا بالنسبة لي، سأحاول قدر الإمكان ألا أتصادم معها حتى لا تحدث مشكلة ويغضب عمي فيزداد الطين

بلة، سأفعل كل ما تطلب مني حتى لو جعلت مني خادمة لها، فأنا مجبرة على تحملها.

في صباح اليوم التالي استيقظت قبل الفجر بنصف ساعة فبدأت بإعداد الخبز والشاي؛ لأن عمي يذهب إلى عمله كل يوم بعد صلاة الفجر مباشرة، انتهيت من إعداد الإفطار مع الأذان، أيقظت أبي ثم عدت لأكمل عملي فقمت بتنظيف البيت كاملاً وانتظرت عودة عمي من الصلاة فقدمت له الإفطار ثم غادر البيت، لبست ملابسي وجهزت أغراضي، عاد أبي من الخارج وأخبرني أنه تواصل مع صاحب الباص الذي يأخذني إلى الكلية كل يوم بأن يأتي ليأخذني من بيت عمي لأننا نسكن عنده.

حضر الباص في تمام الساعة السابعة بعد أن تناولت الإفطار مع أبي ثم غادرت باتجاه الكلية وما زالت زوجة عمي نائمة، دخلت الكلية فسمعت الجميع يتحدث عن مسابقات يوم أمس التي كانت في الإنشاد والتصوير الفوتوغرافي وعن المتعة التي وجدوها فيهما، تذكرت أن اليوم ستكون مسابقة الرسم وسيشارك فيها رسَّام دفعتنا مبارك، ذهبت إلى القاعة فوجدت رقية هناك، سألتها عن موعد بدء المسابقة فأخبرتني أنها الساعة التاسعة والنصف، قلت لنفسي هذا يعني أن أختار بين محاضرة الدكتور أبو بكر ومسابقة الرسم، ومؤكد أني لن أفرط في المحاضرة، لكن ربما أستأذن قبل نهايتها لأدرك شيئًا من المسابقة.

دخلت إلى القاعة الكبرى فوجدتها مكتظة بالطلبة، حاولت العثور على مقعد فارغ لكني عجزت عن ذلك فقررت

البقاء واقفة بجوار الفتيات اللواتي في مؤخرة يسار القاعة، كانت المسابقة على وشك الانتهاء حسب ما أعتقد فالجميع بدا متأهبًا عندما تناول أحد أعضاء اللجنة مكبر الصوت بيده ورفعه إلى فمه، كان عريض الوجه يرتدي نظارات، وقد علت وجهه ابتسامة لا تبعث على الارتياح، هدأت الأصوات القليلة التي كانت تومض بين الفينة والأخرى من أجزاء متفرقة في القاعة، ألقيت سمعي بعد أن أخذت نظرت خاطفة على اللوحات التسع المعروضة على المنصة، بدأ حديثه:

- سنعلن الآن عن اسم الفائز بمسابقة الرسم لهذا العام الجامعي.

ألقى نظرة على زميله مع لحظة صمت ثم اتجه نحو الجمهور وأضاف:

- وهو الطالب مبارك فضل عن لوحته الظلال الرمادية، فهنيئًا له!

فرحت له وغادرت لأخبر رقية فوجدتها أمام الباب تريد الدخول، أخبرتها أن مبارك قد فاز بالمسابقة وتم تكريمه بدرع، قالت إنها توقعت فوزه ثم سألتني عن اللوحة التي شارك بها فأجبتها بأني لا أعرف سوى اسمها لكن لم أدرِ أيهن تكون لوحته، طلبت مني أني أنتظرها عند الباب ودخلت القاعة، لم أدرِ ماذا دخلت تفعل لكن بعد خمس دقائق وجدتها تعود وبيديها الدرع الذي كرَّم به مبارك ولوحة.

- ما هذا؟
- طلبتهما من مبارك لنصورهما ثم نعيدهما إليه.
- دعيني ألقي نظرة على اللوحة.

شاهدت اللوحة فصدمت من المنظر الذي تصوره، لكني أعجبت بالتفاصيل التي أوردها والألوان الهادئة التي استخدمها، أخذنا الكثير من الصور للدرع مع اللوحة ثم دخلنا إلى قاعة المسابقة فاتجهنا إلى مبارك الذي كان قد أنهى حديثه مع أحدهم ويوشك على المغادرة، سلمته الدرع وباركت له ثم سلمته رقية اللوحة.

(13)

مبارك

عندما ذكر اسمي من قبل رئيس لجنة التحكيم لم أصدق في البداية واعتقدت أني لم أسمع بشكل جيد، لكن عندما رأيت عيني عارف تشعان من الفرح صدقت، طلبوا مني أن أصعد على المسرح لاستلام الدرع، عدَّلت هندامي ومشيت بثقة نحو المسرح، منحت الدرع في وسط تصفيق مبهج من الجمهور الذي يملأ القاعة، انهالت عليَّ المباركات من الحضور وأنا أشعر بالفخر، أخذت رقم الأستاذ عمر وقلت له إني سأكون على تواصل مستمر معه لأستفيد من خبرته فأبدى سعادته بذلك وأخبرني أنه لن يبخل عليَّ بأي شيء يمكن أن يطورني ويصقل مهارتي في الرسم.

بدأ الطلبة بمغادرة القاعة وأخبرني عارف أنه سيسبقني إلى الكافتيريا، أتت رقية وباركت لي ثم طلبت مني اللوحة والدرع لتقوم بالتقاط بعض الصور وتنشرهن في صفحات التواصل كنوع من الاحتفاء بإنجازي فابتسمت لها وأعطيتهما لها، ذهبت إلى الدكتور ياسين أتحدث معه وطلبت منه أن يمنحني بعض النصائح لأزيد من جودة رسوماتي؛ فنصحني بأن أطلع على

بعض الكتب التي ستجعلني أكثر إلمامًا بمدراس الرسم والأفكار التي كان يتناولها السابقون في لوحاتهم، شكرته ووعدته بأن أعمل بجد على تطوير مهاراتي، وقبل أن أودعه طلبت منه رقم هاتفه لنبقى على تواصل دائم.

انتهيت من كلامي مع حسين -أحد المشاركين في المسابقة- وأبديت سعادتي بالتعرف عليه ثم هممت بمغادرة القاعة لألحق بعارف فقد أزعجني باتصالاته، انتبهت إلى رقية وسلمى وهم متجهان نحوي ويبدو أن رقية قد التقطت الصور التي تحتاجها، اقتربتا من مكان وقوفي وتقدمت سلمى خطوة واحدة عن رقية ومدت بالدرع نحوي قائلة بابتسامة:

- مُباركٌ لك يا مُبارك!

شعرتُ كأنها جذبت قلبي إليها بشدة ثم أعادته مرة أخرى، حملت الجائزة بين يدي وانتظرت حتى انصرفتا فضممتها إلى صدري بجنون، كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسمي بهذه الطريقة، فلم يكن محببًا إليَّ إلى هذه الدرجة، ارتفع منسوب الدوبامين في جسمي وكدت أن أقفز في تلك القاعة كالمجنون.

لاحظ عارف الابتسامة التي لم تفارق وجهي منذ جلوسي عنده في الكافتيريا، طلب مني أن أشاركه الطعام أو أن أشرب شيئًا على الأقل فأخبرته أني أشعر بالشبع، وضع يده على جبيني ثم قال:

-لا تبدو على ما يرام هل تشكو من شيء يا صديقي؟

-أنا بخير.

ضحكت من فعله وسألته عن سبب استنتاجه بأني لست بخير، أخبرني أني منذ مجيئي من القاعة وأنا متغير رأسًا على عقب، ولا يعقل أن يكون ذلك بسبب فوزي في المسابقة، لم أعلق على كلامه وعدت بظهري على الكرسي، أطلقت زفرة شفافة هامسة وبصري مثبت على الجدار الذي أمامي، اقترب عارف مني وانتزعني من شرودي.

-ألن تقول لي ما الذي يحدث معك؟

-آه يا عارف لو تعرف ما الذي حدث!

-هيا أخبرني.

-هل سبق لك أن وقعت في غرام اسمك؟

-وكيف ذلك؟

-لقد أصبح لاسمي روحًا منذ أن سمعته منها!

- كف عن هذه الألغاز وأخبرني بكل شيء، ومن هذه التي جعلت لاسمك روحًا.

-سلمى!

-أي سلمى؟

-التي تدرس معنا.

أخبرته بما حدث معي عندما هنأتني بالفوز وأعادت لي جائزتي، أخبرته عن السهم الذي أصاب قلبي على حين غرة ولم أقدر على مقاومته، عن ابتسامة عينيها البريئتين اللتان تحملان دفء الدنيا، هز كتفي وسألني عما إذا كنت مدركًا لما أقول، أجبته وقد أسندت وجهي على ذراعي الموضوعين فوق الطاولة:

- نعم أدرك، أشعر بأنها تسللت إلى قلبي خلسة وأوصدت الباب خلفها.

- رفقًا بنفسك وبي؛ فمسابقة القصة تبدأ بعد ربع ساعة وأريد أن أكون بكامل تركيزي حتى أفوز مثلك.

نسيت أمر مسابقة القصة تمامًا؛ فأول النهار كنت أفكر في مسابقتي والآن أفكر بسلمى، ذهبت برفقته إلى قاعة المسابقة التي كانت في كلية العلوم المجاورة لكليتنا، طلب مني أنا أجلس برفقته في المقدمة فأخبرته أني أفضل الجلوس في الخلف، شعرت أنه انزعج من اختياري الجلوس في المؤخرة فاضطررت إلى قبول الجلوس معه في المقدمة حتى يركز على مسابقته.

انتهت المسابقة التي لم أنتبه لأي من أحداثها فقد كنت في عالم آخر لا أرغب بمغادرته أبدًا، علمت أن عارف حققًا مركزًا متأخرًا لكني لا أدري أي مركز بالضبط اتجهت نحوه وهنأته على شرف المحاولة، فقال لي مبتسمًا:

- المهم أن أحدنا حقق شيئًا اليوم.

- معك حق، وأمامك مسابقة أخرى في الغد عليك أن تستعد لها.

- أنا مستعد منذ الآن!

- ممتاز جدًا.

عدنا إلى السكن فاستقبلني الأصدقاء بالهتافات في الغرفة واحتفوا بي، كانت الابتسامة تضيء وجهي وهم يعتقدون أن سببها فوزي، لا أحد يعلم بالسبب الحقيقي سوى عارف الذي اقترب مني وهمس مازحًا:

- يبدو أن وضعك ميؤوس منه ولا أمل في شفائك.

- إذا كان الحب مرضًا فحبذا الاعتلال به.

ضحك عارف مني واستلقى على سريره، طلب الشباب أن يلقوا نظرة على اللوحة فأعطيتها لهم وذهبت لأغتسل، عدت من الحمام فوجدت أن الغرفة صارت كأنها ميدان عام أو سوق تجاري كبير من كثرة الازدحام فيها وعندما حاولت أن أعرف سبب الازدحام قيل لي أن الجميع يشعر بالفضول ويريد إلقاء نظرة على اللوحة الفائزة فهززت رأسي واتجهت إلى سريري.

وفي المساء ذهبت مع عارف إلى الكلية لأنه أخبرني برغبته في التدرب على الخطاب الذي سيشارك به في مسابقة الإلقاء، أعاده عليَّ أكثر من مرة وكنت منبهرًا بأدائه وتنبأت

بفوزه، أخبرني أنه يشعر ببعض القصور في الأداء ويود أن يطوره أكثر حتى يتمكن من أسر الجميع ولأنه يعتقد أن المنافسين الآخرين سيكونون على مستوى عالٍ على حد تخمينه.

كان توقع عارف في محله بشأن منافسيه؛ فقد كان الجميع بدون استثناء يمتلكون إمكانيات في الأداء غير عادية، لكن قدرة عارف على الارتجال في الفقرة المفاجئة التي أضافتها لجنة التحكيم جعلت منه يتغلب على الجميع، تم تكريمه بجائزة ثاني أفضل ملقٍ في الجامعة وكان سعيدًا بهذا التكريم، دعوته إلى الكافتيريا للاحتفال به فرافقني والابتسامة تكسو وجهه.

(14)

سلمى

وصلت الأخبار إلى أبي من رجال الأمن أن سبب احتراق بيتنا هو ماسٌّ كهربائي أصاب أحد الأسلاك القريبة من الستائر فاشتعت النار بسرعة، والهواء القادم من نافذة المطبخ المفتوحة ساعد على سرعة الاشتعال، هذا يعني أننا لن نتمكن من العودة إلى بيتنا حتى نتمكن من تغيير جميع الأسلاك والأثاث التالف وتجديد طلاء الجدران وهذا لن يكون سهلاً خاصة أن أبي أصبح عاجزًا الأعمال الشاقة التي كان فيها بسبب الكمتة التي تصيبه إذا قام بأي مجهود عضلي.

لم يكن أمر البقاء في البيت وعدم القدرة على العودة إلى العمل سهلاً بالنسبة لأبي؛ فقد كان هذا بمثابة الأرضة التي تنهش فيه من الداخل، صحيح أنه لا يتحدث عن الأمر لكنه لا يستطيع إخفاء ما يشعر به عني؛ فأنا أعرفه جيدًا وأكاد أن أجزم أنه لا يستطيع النوم ليلاً بسهولة بسبب تفكيره في هذا الأمر، خاصة وهو يشاهد المضايقات اليومية التي أتعرض لها.

باتت زوجة عمي بالنسبة لي كالكابوس في حياتي؛ فهي تحاول أن تعثر لي على أي خطأ لتقيم الدنيا من أجله ولا تقعدها،

أحيانًا تقول إني تأخرت في طبخ الغداء بسبب الجامعة التي لن أجني منها شيئًا سوى ضياع الوقت والمال من أجل أن تمنعني من إكمال تعليمي، وأحيانًا تقول إني لا أساعدها في تنظيف البيت وتشكوني لعمي الذي ينفجر فيَّ موبخًا دون أن يكلف نفسه أمر الاستماع إليَّ، وتارة تنتظر خروجي من المطبخ لتضع شيئًا يفسد الطبخة من أجل أن أتعرض للصراخ والانتقادات التي لا تنتهي من عمي.

سألت أبي عن سبب هذا الكره الذي تكنه لي زوجة عمي فأخبرني أنها كانت لا تطيق أمي لأنها المفضلة لدى جدي وجدتي وعندما كنت أشبه أمي أرادت أن تنتقم منها فيَّ، لكن أبي طلب مني أن أتجاهل مضايقاتها لي وأن أصبر على كل ما تقول، أخبرته أني أحاول ذلك منذ أن سكنَّا عندهم قبل شهر من الآن غير أنها تقف في طريقي دائمًا وتبحث عما يمكنها أن تصنع منه مشكلة لي، حزن أبي على حالي كثيرًا وقال علينا أن نصبر يا ابنتي إلى أن يجعل الله لنا منها مخرجًا.

مضت الأيام وازدادت معاناتي مع مضايقات زوجة عمي لي خاصة عندما أصبحت بمفردي بعد ترقيد أبي في المستشفى بسبب مشكلات ضيق التنفس التي كثرت عليه في الآونة الأخيرة، كنت أدعو الله كثيرًا في هذه الفترة أن يحفظ لي أبي ويفرج عني ما أنا فيه، لم أكن أمتلك الشجاعة للوقوف في وجهها ولا مرة لتتوقف عما تفعله معي، ربما لأني أشعر بالخوف من ردة فعلها العكسية إذا فعلت ذلك، أو لأني ليس لي مكان آخر أذهب

إليه إذا قامت بطردي من بيتها، تمنيت بشدة أن نتمكن من العودة للعيش في بيتنا لكن هذا أمر مستحيل خاصة وأبي بين الحياة والموت في العناية المركزة.

أخبرتني رقية ذات مرة أنها لاحظت الطريقة التي بدأ مبارك بالنظر بها إليَّ وتعتقد أنه يكن لي بعض المشاعر، قلت لها إنها مخطئة فأنا لم ألحظ هذه النظرات التي تتحدثين عنها ولو مرة واحدة، طلبت مني أن أركِّز على التغير الذي يبدو على ملامحه عندما يراني مقبلة، والاضطراب الذي يبدو عليه عندما يحدث بيننا أي حديث عارض، في البداية تجاهلت الموضوع وقلت لن أشغل نفسي بهذيان رقية فما أعيشه في البيت يكفي لأن أوليه كل اهتمامي، لكن ذات مرة شاهدته يتحدث إلى عارف بانفعال وعندما صرت قريبة لاحظت تغير حالته مئة وثمانين درجة، حينها شعرت بإحساس غريب لم أدرِ هل هو فرح بمشاعره الطيبة نحوي؟ أم تذكرت الطريقة التي كان ينظر بها زوجي المرحوم أمير؟ أم أني تعافيت قليلاً من جراحات الحرب الضروس التي أعاني منها في بيت عمي؟ كلما شعرت به حينها أنه يكن لي بعض الود.

انتهت السنة الجامعية الأولى بصعوبة بالغة بالنسبة لي بسبب الضغوطات النفسية التي كانت تمسك بحلقي وتكاد أن تخنقني، كنت أطلع صديقتي رقية على كل ما يحدث معي في البيت، شجعتني على أن أكون قوية وأقف في وجه زوجة عمي لتعتقني من الجحيم الذي تصبه عليَّ ليل نهار لكني لم أقدر على أن

أكون شجاعة ولا لمرة واحدة، أخدِّر نفسي كل مرة بقولي إني امرأة لا تحب المشاكل من أجل الهرب من عتاب نفسي لي وتأنيب ضميري على تصرفي السلبي مع كل ما يحدث معي.

في الإجازة الصيفية ازدادت حالة أبي سوءًا ولم تعد العلاجات التي تعطى لها في المستشفى مجدية، وكان مرور الأيام صعبًا مع عدم قدرتي على تقديم أي شيء لأبي الذي قدم لي كل ما يملك وحرص على سعادتي وراحتي، آخر مرة زرته فيها كان وجهه شاحبًا تمامًا، حاولت تمالك نفسي حتى لا أزيد آلامه ببكائي أمامه، أشار إليَّ بأن أقرب أذني من فمه ليهمس لي بشيء، اقتربت منه فقال:

- انتبهي على نفسك يا ابنتي، ولا تجعلي أي شيء يضعفك.

رفعت رأسي ونظرت إليه بعينين دامعتين وقلت:

- لماذا تقول لي هذا يا أبي؟ أنا أنتظر تعافيك بفارغ الصبر لنعود إلى بيتنا.

- عديني بأن تفعلي ما طلبت منك.

- ولكن يا أبي..

- أرجوك يا سلمى!

- حسنًا يا أبي، أعدك بذلك.

بعد أن سمع وعدي له تنهد وابتسم، كأنه حصل على ما كان ينتظره منذ مدة، ثبتت حركة عينيه وبقي يحدق إلى السقف بصمت، أمسكت بيده أقبلها فشعرت ببرودة شديدة فيهما، تساءلت عن هذه البرودة فقد كانت يده دافئة قبل لحظات، رفعت عينيَّ إلى وجهه فوجدته على حالته السابقة، حركت كتفه ببطء وحاولت التحدث معه لكني لم أجد منه أي استجابة، هززته جديد فلم يتحرك، شعرت بالخوف وصرخت بعمي الذي كان ينتظرني خارج الغرفة فدخل مسرعًا، أشرت نحو أبي باكية وقلت:

- إنه لا يتحرك يا عمي.

خرج عمي وأحضر الممرض معه، أبعدني عمي وشرع الممرض في فحصه وبعد أن انتهى نظر إلينا بحزن وقال:

- عظم الله أجركم، المريض توفي.

نزل الخبر عليَّ كالصاعقة فلم أحتمل وأغمي عليَّ، أفقت في غرفة أخرى وأنا ممددة على السرير وعمي يقف بجواري، تذكرت ما حدث فدخلت في نوبة بكاء هستري، تركني عمي حتى هدأت ثم طلب مني أن أتمالك نفسي لأننا سنذهب إلى البيت بعد لحظات من أجل إجراءات الدفن، بقيت صامتة ولم أرد عليه بأي شيء، أمسك بيدي وأنهضي ثم ذهب بي إلى سيارته وبعد لحظات رأيتهم يحملون جثة أبي في غطاء سميك ويضعونه في صندوق السيارة، أردت الخروج من داخل السيارة والصعود إلى

جانب أبي في الصندوق لكن عمي أمسك بيدي وأمرني بأن أبقى مكاني.

وصلنا إلى بيت عمي فأمرني بأن أذهب إلى الغرفة عند زوجته التي لم تبدِ أيَّ تعاطف لي، قلت في نفسي ما هذه المخلوقة التي لا تحمل بداخلها أي ذرة من الإحساس، غسَّلوا أبي وذهبوا به إلى المسجد للصلاة عليه ومن ثم دفنه، وأما أنا فبقيت أبكي بصمت في وسط نظرات تشفي مقيتة من زوجة عمي، اتصلت برقية وأخبرتها بوفاة أبي فحزنت كثيرًا وبكينا حتى جفت الدموع في مآقينا، استمرت اتصالات رقية بي في الأيام التالية تطمئن فيها على حالي وتطلب مني أن أكون قوية من أجل نفسي ومن أجل وصية أبي لي.

عادت الدراسة بعد شهر ونصف من وفاة أبي ولم تتغير معاملة زوجة عمي لي بل ازدادت سوءًا، حاولت أن ألهي نفسي بالمذاكرة وتنفيذ ما تطلبه مني بدون مناقشة حتى لا تجد ما تتذرع به للإساءة لي، كان اليوم الأول من الأسبوع الثاني رتيب جدًا لا يوجد فيه أي شيء يجلب الطاقة للدراسة، حتى المحاضرة تبعث الكآبة، انتهت الدوام وكنت أستعد للخروج من القاعة فوجدت مبارك يقف قبالة الباب من الخارج وما إن خطوت خارجها حتى اقترب ناحية الباب وقال:

- سلمى، عظم الله أجرك في وفاة والدك، عندما علمت بالخبر حزنت كثيرًا، وأردت أن أتقدم لك بتعازيَّ لكنك لم تداومي الأسبوع الأول.

- شكرًا لك يا مبارك.

انصرفت بعد أن شكرته وبقي قليلاً ثم انصرف هو الآخر للجهة الأخرى، شعرت بوهج ينبعث من عينيه وهو يتحدث معي، ولم أرغب أن أطيل الوقوف معه حتى لا أتأثر ويرى حزني، قدرت له أنه يهمه أمر حزني قبل سعادتي ويريد أن يشاركه معي، لكني لم أرغب بأن أمنحه أملاً بأن تربط بيننا علاقة، لا أعتقد أنه يستطيع أن يحتمل هذه الهموم التي أحملها، أرى أن في ابتعادي عنه خيرًا لي وله.

(15)

عارف

رأيت مبارك في اليوم الأول من السنة الجديدة وهو ينظر نحو الباب طوال اليوم، لم ينتبه لأي كلمة أوردها الأستاذ دكتور علاء في المحاضرة، وعندما سألته أخبرني أنه ينتظر حضور سلمى حتى يعزيها في وفاة والدها، أبدى تخوفه من توقفها عن مواصلة الدراسة وأنه سيكون حينها أتعس إنسان في الكون لاسيما وأنه لم يطلعها على مشاعره النبيلة نحوها بعد، بحثت عن رقية لعلها تعرف شيئًا عنها يمكنني به طمأنة صديقي لكني لم أجدها ويبدو أنها لم تداوم هذا اليوم.

بقي على حالة التوجس طوال الأسبوع الأول حتى أنه لم يعد إلى البيت في نهاية الأسبوع كما يفعل خلال السنة الماضية وعندما سألته عن سبب بقائه في السكن أخبرني أنه يعمل على لوحة مهمة كثيرة التفاصيل ويريد التركيز عليها، أعلم أنه لا يعمل على أي لوحة وإنما يريد الاختلاء بنفسه كي لا يتم الإمساك به في البيت متلبسًا وهو مشغول البال بسلمى، حاولت أن أدعه على راحته ولم أضغط عليه أكثر بأسئلتي ومحاولات الاطمئنان المستمرة.

دخلت القاعة فرأيت وجه مبارك مبتهجًا، وقع في نفسي حينها أنها تمكن من الحصول على خبر عن سلمى أو رآها هذا الصباح، نظرت إلى جهة جلوس الطالبات فوجدتها بينهن، ضحكت في سري وقلت يبدو أنه سيفجر رأسي اليوم بمواويله عنها، لكن لا بأس المهم أن أراه سعيدًا، انتهت المحاضرة فطلبت من مبارك مرافقتي إلى الكافتيريا لنتناول شيئًا فقال لي أن أسبقه وسيلحق بي لأنه يرغب بمحادثة سلمى في أمر، فرحت بأنه سيتمكن أخيرًا من إخبارها برغبته في الارتباط بها وأخبرته أني سأنتظره ليخبرني بما يحدث معه.

بقيت أنتظره قرابة الربع ساعة حتى حضر أخيرًا وعيناه متوهجتان، بقيت أنظر إليه بترقب حتى أصبحت المسافة الفاصلة بينا نصف متر، أفسحت له مجالاً للجلوس وقلت:

- بشرني ماذا حدث معك؟ هل تمكنت من إخبارها برغبتك في الارتباط بها.

- ما زال الوقت مبكرًا على هذا الحديث يا عارف.

- إذن ماذا كنت تفعل كل هذه المدة؟

- انتظرتها حتى خرجت ثم عزيتها في وفاة والدها.

- فقط؟!

- نعم فقط، ماذا كنت تتوقع مني أن أقول لها؟

- كنت أعتقد أنك ستخبرها، وترى هل هناك موافقة مبدئية أم لا؟

- أخبرتك أن الوقت ما زال مبكرًا على هكذا خطوة، ثم إن هذه ليست الطريقة الصحيحة لفعل ذلك.

- كما تشاء.

لم يعجبني توانى مبارك وكنت أود لو أنه حسم الموضوع؛ فيعرف هل تبادله المشاعر نفسها فيكمل مشواره لخطبتها والزواج بها، أم إنها لا تبادله المشاعر فينقذ نفسه من ألم التعلق، ومآسي العشق، أرغب أن أصرخ في وجهه بشدة لأشفيه من التسويف الذي لن يكون محمودًا أبدًا لكن ما باليد حيلة، وطالما أنه لا يستمع إلى نصحي فقد أعفيت من عذره، وليتحمل عواقب تفكيره وتدبيره، وأرجو أن يكون على صواب فأفرح له وألا أكون أنا المصيب في النهاية وأحزن عليه!

عدنا إلى السكن بعد يوم شاق محتشد بالمحاضرات، يبدو أن السنة الثانية ستكون منهكة بحق؛ فالجدول يقول بأننا سنخرج كل يوم في تمام الواحدة والنصف، ولا يوجد يوم راحة في الأسبوع كالسنة الماضية، ألقيت بنفسي على السرير ولم أشعر إلا بعبدالرحمن يوقظني لصلاة العصر، سألته عن مبارك وباقي الشباب فأخبرني أنه عاد من المسجد ولم يجد أحدًا منهم في الغرفة، تخلصت من بقايا النوم التي ما زالت تقيدني في السرير ونهضت لأغتسل وأصلي، خرجت من السكن وفكرت بأن أتمشى قليلاً بمفردي ثم أتصل بمبارك لأعرف أين ذهب، لم أمش سوى بضعة خطوات فقط حتى وردني اتصال منه؛ فضحكت وأجبته:

- سبحان الله! كنت أفكر بك.
- أين أنت الآن؟ هل ما زلت في السكن؟
- خرجت منه للتو.
- تعال إلى الكلية أريد أن أريك شيئًا.

ذهبت إليه فوجدته يفترش الباحة وبين يديه ورقة رسم يكاد أن يلتصق وجهه بها، وأما الألوان فهي منثورة عن جانبيه بطريقة عشوائية، استغربت جلوسه بتلك الطريقة على حصى الباحة وواصلت الاقتراب منه، سمع وقع خطاي فرفع رأسه وقال وهو يحدق في لوحته بزهو معتاد:

- أنظر إلى هذا العمل العظيم.
- ما أشد تواضعك!

ضحك على كلامي وواصل حثي على الاقتراب وإلقاء نظرة عن قرب، جلست بجواره وأطلت النظر في اللوحة محاولاً العثور على شيء يميزها عن أعماله السابقة فلم أجد، نظرت وقلت:

- لا أرى فيها ما يميزها عن باقي لوحاتك.
- لست جادًا؟!

أخبرته أني جاد في كلامي ولا أرى ما يجعلها عظيمة كما يقول، هي لوحة جميلة نعم، أما إنها عظيمة ولا تضاهى فهذا غير صحيح، أحسست بانزعاجه من رأيي وكأني هشمت غروره، وقللت من شأن لوحته؛ فانفجر غاضبًا:

- كنت مخطئًا بعرض اللوحة على واحد مثلك لا يفهم الفن حق الفهم.

- ترفق بنفسك قليلاً يا دافنشي زمانك!
- وتسخر مني أيضًا.

فضلت أن أتركه وأغادر المكان حتى لا يحدث شيء نندم عليه، أسوأ ما فيه هو غروره الذي يفقده صوابه أحيانًا، ذهبت إلى مسجد الكلية وغسلت وجهي حتى هدأت قليلاً، خرجت أتجول في شوارع المدينة حتى غروب الشمس، حاول الاتصال بي ثلاث مرات لكني لم أجبه.

(16)

مبارك

كنت أعتقد أنه سيرى العظمة فيها لكنه صدمني برأيه ورأيت أن أنتصر لنفسي، كنت فظًا معه بعض الشيء لكن ذلك حصل بغير قصد مني؛ فعارف صديقي الوحيد في هذا المكان ولا أريد أن أخسره بسبب رأيه في لوحة من لوحاتي، ثم إنه ليس ملامًا على شيء ولم يكن من الصواب أن أتشاجر معه، كان صادقًا معي وأعطاني رأيه بدون أي مجاملة، وهكذا هو الصديق الحقيقي، يخبرك بالحقيقة بدون أي بهرجة أو تلوين، لكننا لا نحب من يصارحنا؛ لذلك نخسر المميزين ونحافظ على المزيفين.

حاولت الاتصال به أكثر من مرة لكنه لا يجيب، أود حقًا أن أعتذر له على فظاظتي معه، سأتركه الآن ليهدأ قليلاً طالما أنه قرر ألا يجيب على اتصالاتي، وسأتصل به بعد المغرب أو سأذهب إلى السكن لعلي أجده هناك، من الأفضل الآن أبقى هنا وفيما بعد يكون خيرًا بإذن الله، استلقيت على الأرض بجوار لوحتي وأخذت أعاتب نفسي على هذه العصبية التي تصيبني أحيانًا، في الحقيقة مشكلتي ليست العصبية وإنما ما يتسبب في تولدها، لا أكون

عصبيًا إلا عندما يحاول أحدهم أن يقلل من شأني أو إن صح التعبير عندما أتوهم أن أحدهم يقلل من شأني، عليَّ أن أكون أكثر ثقة بنفسي وأضبط أعصابي أكثر؛ فالإنسان الشديد الرشيد هو الذي يتمكن من السيطرة على انفعالاته ولا يرفع صوته في وجه مخالفه.

صليت المغرب في الكلية واتصلت بعارف حتى أعتذر منه، أجابني وبدأ أنه ما زال مستاء من طريقتي معه العصر، أخبرته أني آسف وأرجو منه العفو، أخبرني أنه يسامحني لكنه طلب مني أن أحاول ضبط لساني في المرات القادمة حتى لا أتسبب بجرح شخص يعزني ويعتبرني أكثر من أخ، أخبرته أننا سنكمل حديثنا عندما نلتقي في السكن فوافقني على ذلك، سألته عن مكان تواجده فعلمت أنه ذهب إلى السوق ولن يصل إلى السكن قبل الساعة الثامنة، حملت أغراضي وذهبت بها إلى الغرفة، وضعتها مكانها ثم أخذ كتابًا استعرته من المكتبة اسمه الخروج عن النص وعدت إلى الكلية مرة أخرى.

لم أنتبه لمرور الوقت فقد كنت منسجمًا مع الكتاب إلى أبعد الحدود، تذكرت أني أغلقت جوالي ويبدو أنهم اتصلوا بي كثيرًا لكنهم عجزوا عن العثور عليَّ فتحت الهاتف فوجدت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، يا للهول كل هذا الوقت مضى بدون أن أشعر به، يجب أن أصلي العشاء أولاً ثم سأنظر فيما سأقوم بفعله، صليت العشاء في الباحة ثم نظرت إلى شاشة هاتفي فوجدت إشعارًا بثلاثة اتصالات من عارف، يبدو أنه قلق

على اختفائي خاصة وأنني أخبرته برغبتي في الجلوس معه بجوار السكن حين عودته من السوق.

لا أستطيع الذهاب إلى السكن في هذا الوقت المتأخر فلو اخترت القفز من على جدار الكلية وطرق الباب عليهم فإن يدي ستفتر من الطرق بدون أن يسمعني أحد، كما أنه ليس من اللائق إزعاجهم، ولا أقدر على الذهاب إلى المسجد الذي يقع قبالة البوابة الرئيسية؛ لأن الحارس سيشعر بي وسيهلكني بأسئلته التي لن تنتهي، هذا لو اكتفى بسؤالي هو ولم يرفع أمري إلى العمادة في صباح اليوم التالي، عليَّ أن أصبر على هذا البرد القارس، وعلى وحشة المكان بعد انطفاء الكهرباء قبل لحظات، لن أشغل نفسي بالتفكير حتى لا يتمكن مني الخوف، يجب أن أظهر قدرًا كبيرًا من الشجاعة وكل شيء سيمضي بإذن الله.

فكرت بالتجول قليلاً في أروقة الكلية حتى يمضي الوقت سريعًا، خلعت حذائي بجوار الدرج الغربي ومضيتُ حافيًا فوق تراب الباحة الذي بدا باردًا عندما لامسته قدماي أول مرة، لكني اعتدت عليه ولم أعد أشعر ببرودته بعد عدة خطوات، أمضيت قرابة النصف ساعة على تلك الحالة أمشي بغير وجهة محددة، حتى مللت المشي وقررت العودة أدراجي؛ لأكمل ما تبقى من ساعات انتظاري بجوار الدرج الذي وضعت حذائي عنده، جلست بجوار الدرج فسمعت صوت أنين مكتومٍ قادمًا من الأعلى فابتسمت وقلت لنفسي لا بد أني أتوهم، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتي عندما واصلت سماع الأنين نفسه وحلَّ مكانها

خوف لم أعهد مثله من قبل، أخذت نفسًا عميقًا وتمالكت نفسي ثم صعدت؛ لأستكشف ماهية الصوت ومصدره، صعدت بخطوات ثقيلة نوعًا ما ويسكنني كم هائل من المشاعر المتنازعة بين الخوف والفضول والتردد والإقدام، وصلت إلى الدور الأول ثم التفت يمينًا فلم أرى شيئًا بسبب الظلام الذي يخيم على المكان، قررت الذهاب لأتفحص المكان عن قرب، لكن بعد أول خطوة سمعت الأنين من الجهة الأخرى، وعندما التفت رأيتُ شخصًا مستندًا إلى باب القاعة عشرين، سرت في جسمي قشعريرة وازدردت ريقي بصعوبة، لكني قررت مواصلة الطريق واكتشاف الأمر، مشيتُ وكأن شيئًا يعيق قدمي من الحركة، لا أدري هل هو الخوف أم شيء آخر لم أتبينه حينها.

اقتربت ببطء شديد حتى أصبحت المسافة بيننا قرابة العشر خطوات، بدا شكله غريبًا وملابسه غير مألوفة، كان يرتدي جلبابًا رماديًا باهت اللون أو هكذا رأيته في الظلام، يضع غطاء على رأسه لم يجعلني أتمكن من رؤية ملامح وجهه، غطاء الرأس كان من أصل الجلباب وله اللون نفسه، بقيت مسمرًا مكاني وأفكر بالعودة أدراجي لعله لم ينتبه لي، ولما طال وقوفي مكاني أحس بي وتوقف عن بكائه، رفع رأسه وأقبل بوجهه نحوي، عندما رأيت وجهه انخلع قلبي منه، كان مجرد بياض بدون ملامح، أحس بخوفي فقال بصوته الواهن المتقطع من أثر البكاء:

-لا تخف، لا يمكنني أن أضرك بشيء، ضع يمينك على قلبك حتى تتمكن من رؤية ملامحي.

رفعت يدي بدون وعي إلى صدري ورجلاي تصطكان من شدة الخوف، فعلت مثلما أخبرني ووضعت يميني على قلبي، بدأت ملامح وجهه بالتشكل أمامي شيئًا فشيئًا حتى اكتملت، كان يحمل وجهًا طفوليًا مريحًا، شعرت بألفة عجيبة تجاهه وكأني أعرفه منذ زمن بعيد، بدأت بالاقتراب وتقليص المسافة بيننا حتى صارت ثلاث خطوات فجلست حينها، لم ينتظر أن أطلب منه الحديث حتى بدأ بنثر بؤسه بين يديَّ كأنه يريد أن يخفف عن نفسه بمشاطرة هذا الحزن.

تحدث عن حسرته على سنوات الدراسة التي لم تشفع له بأن يحصل على عمل في تخصصه، وعن الضغوطات النفسية التي تعرض لها من تعامل أهله معه في البيت حتى اضطر إلى قبول عمل في حديقة تبعد مسافة كبيرة عن المدينة، كان يتحدث والدموع تنحدر باستمرار على خديه، كل هذا يحدث ويدي على قلبي، أخشى أن أزيحها فتختفي ملامحه، واصل حديثه عن مأساته إلى أن قال:

-لم تكتفِ عائلتي بأن تدخلت في كل شيء في حياتي السابقة وتقليص نفسي بداخلي، هم يريدون الآن أن يزوجوني بابنة خالي وأنا لا أريدها، لا أريد الارتباط بفتاة لمجرد إرضاء أمي وأبي، لا أريد أن أعاني طوال حياتي من هذا الزواج، لا أريد أن أصبح كل يوم وأنا أتمنى لو أتمكن من التخلص من هذه العلاقة التي فرضت عليَّ،

ماذا لو رزقت بأطفال منها؟! هل يعانون هم الآخرون مثلي، لا يمكنني أن أقبل.

- هوَّن على نفسك.

-أتعلم أني أحببت فتاة وأرغب بأن تكون زوجتي؟!

سكت قليلاً وأنا أنظر إلى دموعه التي ازداد تدفقها عندما بدأ بالحديث عن هذا الفتاة التي قال إنه يحبها، يبدو أن هناك ما يؤلمه في هذه العلاقة، مسح فيضان الدموع الذي أغرق وجهه وأضاف:

-أتدري بأني حاولت كثيرًا أن أتقرب منها؟! سألتها عن الأمور التي تحبها لألزمها فلم تجب، وعن الأمور التي تكرهها لأتركها فلم تجب كذلك، هي تحب أن تبقى مجهولة بالنسبة لي، مزاجيتها تستعصي على الفهم، لا تميز بين التدلل والصد وذلك يؤلم قلبي، ما زلت لا أدري هل تبادلني المشاعر نفسها فأواصل الاقتراب منها، أم أنا شخص عادي ظهر في حياتها كغيره من الهوامش وسيختفي بعد حين، حاولت جاهدًا أن أكتشف ذلك فلم أقدر، أراها بشكل شبه أسبوعي لكني لا أنال منها سوء ابتسامة تعقب كل معلومة تحصل عليها مني؛ فهل لديك طريقة -أيها الغريب- تجعلني أحصل على الإجابة التي تجعلني أتخلص من هذا الصراع يكاد أن يمزقني؟

نظرت إليه بشفقة وقلة حيلة وقلت:

- من التي أوصلتك إلى هذا الحال المريع؟

امتلأت عيناه بالدموع وشهق شهقة جعلت قشعريرة تسري في جسدي، رأيته ينظر إلى الأفق بحسرة بدون أن ينطق بكلمة واحدة، تحركت من مكاني وجلست قبالته ونظرت إلى عينيه اللتين بهت نورهما في تلك اللحظة، أعدت عليه السؤال فأشاح ببصره بعيدًا عني وقال:

- إنها سُـ...

لم أستطع معرفة اسمها كاملاً؛ لأنه اختفى فجأة بدون سابق إنذار، الشيء الوحيد الذي حصلت عليه من اسمها هي السين المضمومة التي تتصَّدرهُ؛ لذا سأطلق على هذه الفتاة المجهولة اسم السينية أو السيدة سين حتى يأتيني مرة أخرى ويخبرني بتتمة اسمها.

انتهبت إلى أني صرت وحدي، والظلام يلفني من كل مكان والبرد يحاول أن يكون له حظ وافر من جسدي، غزاني خوف شديد عندما تبينت أن هذا المخلوق البائس ليس بشريًا مثلي، تحركت من ذلك المكان بأقصى سرعة ممكنة واستطعت أن أصل إلى المسجد بدون أن يحس بي الحارس، جلست بجوار المحراب أرتعش لا أدري هل من الخوف أم من البرد، بقيت في مكاني ضامًا ركبتيَّ إلى صدري حتى تمكن مني النوم ولم أشعر بشيء آخر.

(17)

ميمون

قبل ثلاث سنوات...

أتى كبير التجار في الثلاثاء التالي بمفرده وعندما سألته عن ابنته أخبرني أنها انشغلت ببعض الأعمال ولم تقدر على المجيء معه لأخذ الخطة التسويقية التي طلبت مني أن أعمل عليها فقلت له إني جهزت خطة مفصلة ستضمن لها وصولاً كبيرًا إلى العملاء وستحقق لها أرباحًا كبيرة، طلب مني أن أحضرها ليلقي نظرة عليها فابتسمت له ثم مددت بالأوراق إليه إذ أني كنت أحملها في يدي منذ رؤيتي لسيارته من بعيد، أخذ الأوراق مني ثم تركني ودخل إلى الحديقة وبعد مضي ساعة ونصف تقريبًا كنت ما زلت أجلس في مكاني بجوار باب الحديقة فلمحت سيارة أجرة بيضاء تقبل من بعيد، استغربت من قدومها ووقفت متأهبًا للقادم فيها وما هي إلا لحظات حتى توقفت بالقرب مني، دنوت من السائق لأسأله عن سبب مجيئه لكن سبقني صوتها وهي تترجل من السيارة:

- هذه أنا يا ميمون.

سعدت كثيرًا بحضورها فابتسمت وقلت لها:

- سألت سيدي عنك فأخبرني أنك منشغلة ولن تقدري على الحضور.

- في الواقع كنت وما زلت منشغلة، لكن عندما هاتفني وأثنى على الخطة التي قمت بإعدادها لي أجَّلت كل ما لدي وأتيت من فوري لأراها بنفسي.

- هل حقًا أثنى عليها؟

- كثيرًا.

- الحمد لله! وأرجو أن تنال إعجابك أنت أيضًا.

- أين هو الآن؟

- في الداخل.

ابتسمت لي ثم دخلت إلى أبيها بعد أن دفعت لسائق الأجرة، بقيت في مكاني أمام الحديقة بانتظار خروجها لتطلعني على رأيها في الخطة التي عملت عليها طوال الأسبوع الماضي، انتظرت طويلاً فلم يصلني خبر منها ووقع في نفسي أن عملي لم يرق لها مع أني بذلت جهدًا كبيرًا لأجعل كل شيء مميزا، غربت الشمس وأنا أسند ظهري إلى الكرسي أمام باب الحديقة، أحسست بدبيب حركة خفيفة قادمة من الداخل فنهضت لأتبينها، كان سيدي يستعد لصلاة المغرب، انتبه لي فطلب مني الانضمام إليه لنصلي معًا، هممت بأن أسأله عن رأي سلافة في الخطة لكني تراجعت عن ذلك، لاحظ أني أقف أمام الصنبور بدون حركة فسألني إذا كنت أعاني من شيء فأخبرته بأني بخير.

علمت أن سلافة أعجبت إعجابًا شديدًا بالجهد الذي بذلته في خطتها التسويقية، وقد أمضت فترة العصر في تطبيق الجزء المتعلق بوسائل التواصل الاجتماعي، أعجبت برغبتها الكبيرة في تحقيق نتائج كبيرة من مشروعها، ورغبتها في الاستقلال ماليًا عن أبيها، أمضيت الليل بطوله أجلس أمام موقدي بجوار الباب، لم أستطع منع نفسي عن التفكير فيها، فهي فتاة فريدة من نوعها ولا يلام الإنسان إذا شعر بنوع من الود نحوها، لم أرها سوى في صباح اليوم التالي وهي ترافق أباها ويغادران نحو المدينة.

مضت الأشهر تلو الأشهر وتفكيري بسلافة ازداد كثيرًا، حاولت أن أتقرب منها لأتعرف عليها وأبين لها أني بدأت بالتعلق بها، غير أنها كانت تحاول دائمًا اختلاق الحجج لتغيير مجرى حديثنا، أو تجد ما يجعلها تنصرف وتتركني ضائعًا أمام باب الحديقة، آخر مرة أخبرتها بأني سآخذ شهرًا إجازة أستريح فيها وأرى أسرتي التي طال غيابي عنها، أردت أن أستكشف عينيها لأعرف هل ستكون لهما ردة فعل أتمناها أم لا، لكني لم أفهم منهما شيئًا، في الحقيقة لست متحمسًا كثيرًا للعودة إلى البيت فأنا أعرف حق المعرفة أنها لن تكون إجازة مريحة، بل إني أعتبر البقاء هنا بمثابة إجازة لي والعودة إلى البيت هي العمل الشاق الذي لا بد لي من إنجازه.

أمضيت الأسبوع الأول في البيت بصورة مريحة نوعًا، ورأيت بأني كنت أبالغ في تخمين السيناريو السلبي الذي سأعيشه

خلال إجازتي وتبين خطئي، أنا سعيد بتعاملهم اللطيف الذي أصبحوا يعاملوني به وتمنيت لو لم تنتهِ هذه الأيام أبدًا، غير أنهم كانوا يعدون لأمر وأردوا أن يكون تعاملهم اللطيف تمهيدًا له، صدمتني أمي في منتصف الأسبوع الثاني برغبتها في تزويجي بابنة خالي وأنها قد اتفقت مع أبي حول ذلك ويريدان مني الاستعداد للذهاب من أجل خطبتها، شعرت حينها كأن أحدهم ضربني بقضيب حديدي على رأسي، أخبرتها أني أرفض الأمر تمامًا ولن أقبل بأن يختارا لي زوجة على مزاجهما؛ لأنني المعني بالأمر وأنا من سأختار، غضبت مني حينها غضبًا شديدًا وتحول لطفها إلى طوفان جارف، انهالت عليَّ بوابل من السباب والإهانات التي لو ألقيت على جبل لانهار، خرجت من البيت وأنا في غاية الانكسار والحزن، مشيت بغير هدى في طرقات حملتني إليها قدماي بدون إدراك مني، شعرت بالإنهاك فاستندت إلى جدار كان قريبًا مني وبكيت بحرقة وأسى على حالي.

بقيت أبكي حتى شعرت ببرودة الجو التي بدأت تنفذ إلى مسام جلدي، انتبهت إلى أن الأرض أصبحت صلبة تحتي وصار خلفي بابًا من حديد، لم أعبأ بتغير الجغرافيا وانتقالي إلى مكان ذي عمران وتفاصيل مختلفة، أنهكني البكاء الذي كنت أعاقره منذ ثلاث ساعات أو نحوها وصار بكائي أنينًا أحاول كتمه لأستريح قليلاً، بقيت على تلك الحال حتى أحسست بوجود شخص ذي ملامح غريبة جعلت قلبي ينبض بسرعة من الخوف لوهلة، وضعت يدي على قلبي فشعرت بأنه سكن قليلاً وأصبح

شكل ذلك الغريب مريحًا، أحسست بأنه خاف مني هو الآخر فطلبت منه ألا يخاف ووضع يده اليمنى على قلبه سيمكنه من رؤيتي بشكل أفضل، فعل ما نصحته به واقترب مني، أدركت بأنه فرصة مناسبة لتفريغ شحنات الحزن التي تكاد أن تقتلني فبدأت بالبوح له بكل شيء وهو يستمع إليَّ بتأثر، أخبرته أيضًا عن وقوعي في الحب والتيه الذي أعانيه من هذا الحب، سألني عن اسم الفتاة وعندما أردت أن أخبره باسمه اختفى كل شيء حولي.

شعرت بشيء شدني بقوة ولم أحس بنفسي إلا وأنا أقف وسط الحديقة، أخذت نفسًا عميقًا وحاولت استذكار ما حدث معي قبل لحظات وأنا أتحدث مع ذلك الشاب الذي سكبت نفسي أمامه ولم ألقِ بالاً لأي شيء، هل هذا صوتها الذي يداعب أذني أم إني أتوهم؟ ازداد الصوت قربًا ووضوحًا فالتفتت ورائي، كانت تقف مبتسمة وأخبرتني أنها علمت بعودتي إلى العمل بعد الإجازة التي أخذتها منذ أسبوعين وأتت لتراني، أخبرتني أنها افتقدتني وأحبت أن تتحدث معي، لم أصدق نفسي حينها خاصة عندما نظرت في عينيَّ مباشرة وقالت:

-لست وحدك الذي تحس بهذه المشاعر الجميلة يا ميمون، الأمر متبادل بيننا، وإني عندما كنت أتجنبك الفترة الماضية لأعرف هل ما أشعر به حقيقي أم لا.

- هذا يعني أنك تحبينني مثلما أحبك؟

- يمكنك أن تحادث أبي في أمرنا، لكن عليك أن تتأهب للعاصفة التي سيحدثها ابن عمي عماد.

- وما علاقته بالأمر؟

- يرغب بأن يحصل عليَّ منذ أمد لكي يتمكن من بسط نفوذه على كل ثروة أبي، أنا لا أطيقه خاصة وأنه يبغض المعرفة والأدب والفن، إنه رجل آلي منعدم الإحساس.

وعدتها بأن آخذ حذري منه، في الحقيقة لم يكن أمره يشغل بالي كثيرًا فبعد أن عرفت بأنها تبادلني المشاعر نفسها يمكننا أن أحارب حتى أستطيع الفوز بها وتكون زوجتي، قررت مفاتحة أبيها في أمر زواجنا لكني خشيت أن يصل خبر لعماد فيدبر لي ما ليس في حسباني لذلك رأيت أن أتريث قليلاً وأفكر في أنسب طريقة لفعل ذلك.

منذ أن أتت إلى الحديقة هذه المرة والورود أكثر تفتحًا، والفراشات تملأ المكان كأنما تقيم حفلاً راقصًا، أعلم أني بدأت أهذي وأقف على عتبة الجنون، لكن هذا يسعدني كثيرًا ويا حبذًا جنونًا بها! حتى أني تعلمت كتابة الشعر وتعمقت فيه بشدة؛ لأني أدرك ألا شيء يليق بها سوى نسج القصائد، لحظة واحدة! أعلم الآن لماذا حضرت كل هذه الفراشات إلى الحديقة حتى كادت تحجب عنها الشمس لكثرتها، لم يكن حضورهن مصادفة

وإنما جلبهن حضورها! كأنما هي فراشة في براءة وجهها ودفء صوتها وابتسامتها التي تحلق بي ما بين السماء والأرض.

صرت مهووسًا بها وعرفت كل شيء عنها تقريبًا، هي لا تعرف أني استعنت بأحد أصدقائي -الذي يجيدون الحصول على المعلومات ولديهم مصادر متعددة- وجعلته يجري لي بحثًا شاملاً عن حياتها؛ فهي لا تريد أن تخبرني بأي شيء لذا قررت أن ألمَّ بكل شيء عنها لأعرف كيف يمكنني أن أحافظ على حبي في قلبها وأجعلها تتعلق بي كتعلقي بها، علمت أن الخامس عشر من ديسمبر يوافق تاريخ ميلادها؛ إذن منذ هذا اليوم سيبدأ العام بمنتصف ديسمبر.

(18)

سُلافة

لم تعد زياراتي الأسبوعية إلى حديقة أبي التي يعمل بها ميمون مجرد زيارات عادية يمكن التذرع بأي عذر للامتناع عنها وإنما أصبحت كأنها حالة إدمان في مرحلة متقدمة يعسر الاستشفاء منها، لقد أصبح ميمون أستاذي الذي يبذل لي كل معلومة ممكنة في المواد التي أعجز عن فهم شرح الدكتور لها في الجامعة، كان يمنحني المعلومات بسعادة عارمة، وعندما أعجز عن إدراك بعض المعلومات يعيد عليَّ الشرح أكثر من مرة حتى أفهمها تمامًا.

شعرت بشيء من الانجذاب نحو ميمون وأحسست كأنه مرآة روحي، غير أني لم أكن متأكدة من حقيقة مشاعري نحوه؛ لذا فضلت أن أبقي مسافة آمنة بيننا حتى لا أشعره بأي شيء تجعله يفكر بأخذ خطوة نحوي، أنا واثقة بأنه يتمنى أن ألمَّح ولو تلميحًا عفويًا ليذهب إلى أبي ويخبره بأنه يريد الزواج بي، وهذه الثقة تولدت من خلال تجربتي لأخلاقه طوال السنتين الماضيتين، ثم إن أبي يحبه كثيرًا ودائمًا ما يثني عليه في حضرتي.

مضت سنتي الجامعية الأولى أفضل مما كنت أتوقع والفضل بعد الله يعود للجهد الذي بذله ميمون معي، صار أبي لا يذهب إلى حديقته المفضلة إلى بعد أن يطل على غرفتي ويسألني إذا ما كنت أرغب بمرافقته، والمضحك في الأمر أنه يجدني في كل مرة متأهبة للذهاب وقد لبست عباءتي ونقابي بانتظار حضوره، حفظت التوقيت الذي يذهب فيه أبي من كل ثلاثاء عن ظهر قلب، وهو كان سعيد بالإنجاز الذي حققته بفضل تدريس ميمون لي؛ لذا لم يرغب بأن أفقد هذا المستوى المتميز الذي بلغته.

رأيت ميمون ذات مرة منزعج مع بداية السنة الجامعية الثانية فأخبرني أن السبب في انزعاجه هو كلام أبي له عن رغبته في منحه أجرًا على تدريسي فرفض ذلك بشدة، سألته عن سبب رفضه للأمر لأنه يستحق أن يحصل على ثمنٍ لجهده ووقته، قال لي بنظرة جعلت قلبي يضرب بشدة:

-لا أحد يطلب أجرًا من عائلته على ما بوسعه تقديمه لهم، أنا أعتبركم عائلتي ولا أشعر أن هناك عبء في تدريسي لك.

ابتسمت حينها من أعماق قلبي وشعرت بالامتنان له، دخلت إلى أبي وأخبرته بأن ميمون انزعج من مسألة حصوله على مقابل لتدريسي ولا يرغب منا أن نقول ذلك له مرة أخرى، هز أبي رأسه موافقًا ولم يقل شيئًا، اتجهت إلى ساقية الماء التي

تتوسط الحديقة على مقربة من مكان جلوس أبي تحت شجرة البرتقال وخلعت حذائي ثم وضعت قدميَّ فيها، كان الماء دافئًا ومريحًا، أبقيتهما فيها قرابة النصف ساعة حتى شعرت بارتياح شديد.

بدأت أشعر برغبة ميمون في التعرف عليَّ أكثر، ورغبته في أن نصبح أكثر من كوننا أستاذ وطالبته، قرأت ذلك في عينه مع أنه لم يخبرني بأي شيء، وأنا الأخرى أشعر بأني بدأت بالتأكد من حقيقة مشاعري نحوه؛ فهو –من خلال كلام أبي عنه، ومن خلال معرفتي به طوال المدة الماضية- أنسب شخص يمكنني أن أكمل حياتي معه دينًا وخلقًا ووعيًا، ربما هو فقير ماليًا نوعًا ما لكنه يحب دائمًا أن يطور من وضعه المالي من خلال سعيه الدؤوب في الحصول على فرصة واحدة للعمل بشهادته وما يملك من مهارات وهذا أكثر ما جعلني أحترمه كثيرًا، بالتأكيد هذه الصفات تجعله أوفر حظوظًا من ابن عمي عماد الذي لم يكمل حتى الثانوية ويرغب بالزواج مني ليتمكن من الاستيلاء على ثروة أبي بطريقة سلسة.

تفاجأت بالإجازة التي طلبها ميمون من أبي، تمنيت لو أنها يمزح معي ولن يغيب عن الحديقة فقد اعتدت وجوده طوال الأشهر الماضية ولم أتخيل أن يأتي أسبوع لا آتي فيه إلى الحديقة أو أراه، منحه أبي الإجازة خاصة أنه لم يذهب إلى بيته منذ مدة وأراد منه أن يسترح قليلاً، مضى الأسبوع الأول شاقًا على نفسي كيف لا وهو لا يعلم بأني أبادله مشاعر الحب وأرغب بأن يكون

زوجي، لا بد أنه يعاني من وطأة التفكير بي ويبحث عن طريقة يخبرني فيها بمشاعره، لكنه الآن في إجازة ويجب أن أنتظر عودته لأخبره.

بعد مضي عشرة أيام كنت خارجة من غرفتي أريد الذهاب إلى المطبخ لشرب بعض الماء عندما سمعت أبي يتحدث في الهاتف مع أحدهم ويسأله عن سبب قراره المفاجئ بإلغاء الإجازة والعودة إلى العمل، نبض قلبي وتمنيت لو كان هو المتحدث وسأتمكن من رؤيته هذا الأسبوع، بقيت واقفة أمام غرفتي بانتظار البشرى التي ستنفخ فيَّ الروح وستزيل عني بؤس الخبر الذي سمعته البارحة من أمي عن تفكير عماد بزيارتنا حتى يطلبني للزواج، أخبر أمه بذلك وطلب منها أن تخبر أمي لأستعد لهذه الزيارة، وقبل أن ينهي المكالمة سمعته يذكر اسمه ويقول له بأن بإمكانه العودة منذ الغد.

فرحت كثيرًا عندما سمعت اسمه وتأكدت بأنه قرر إنهاء إجازته، استغربت من رغبته في ترك الإجازة والعودة إلى العمل لكن ذلك لم يشغل بالي؛ فالمهم هو أنني أستطيع أن أراه عندما أذهب غدًا برفقة أبي إلى الحديقة، عددت ساعات تلك الليلة بانتظار طلوع شمس اليوم التالي ومجيئ العصر حتى أخبره بأني افتقدته في الأسبوع الماضي وأني أبادله المشاعر التي يحس بها نحوي، ربما يعتبرني جريئة أو مجنونة؛ إذ أن المعتاد أن يبدأ الشاب بالإفصاح لا الفتاة، لا يهم فأنا أثق بأنه يشعر بما أشعر به ولن يخذلني أبدًا.

وصلنا إلى الحديقة بعد العصر مباشرة، وجدنا باب الحديقة مفتوحًا ولا يوجد أحد على الكرسي الموضوع أمامها، كان السكون يخيم على المكان ولا يسمع سوى صوت الهواء الذي يداعب الأشجار في الداخل، توجه أبي إلى مكانه المفضل ولم يشغله أمر غياب الحارس وكأنه يعلم بمكان وجوده، تجولت في المكان بحثًا عن ميمون وبعد مضي عشر دقائق من البحث ناديته بصوت شبه مرتفع وأكملت بحثي عنه، رأيته يقف أمامي وبدا كأنه غارق في تفكيره ولا يوجد شيء يربطه بهذا المكان سوى جسده المزروع في تلك التربة، ناديته من جديد فالتفت نحوي بابتسامة أقامت حفلاً راقصًا في قلبي، أخبرته بأنه سعيدة بعودته ثم بحت له بمشاعري نحوه، سعدت بأن إحساسي بحبه لي لم يكن خاطئًا؛ رأيت بريقًا في عينيه وهو يخبرني بأنه ينتظر هذا اليوم منذ زمن بعيد ليتمكن من إفراغ مخزون المشاعر التي لم يعد بإمكانه أن يخبئها في صدره أكثر، نصحته بأن يتحذر من ابن عمي عماد؛ لأنه لو اكتشف أننا سنرتبط فإنه سيحاول الإضرار بميمون حتى يتخلص منه ويخلو الطريق أمامه من أجل تحقيق هدفه بالسيطرة على ثروة أبي.

(19)

سلمى

أمضيت الليالي الطوال في تكرار دعاء (اللهم أخرجني من هذا البيت الظالم أهله) من كثرة الضغط النفسي والإنهاك البدني الذي أتعرض له يوميًا من زوجة عمي التي لم يزدها موت أبي إلا ظلمًا وطغيانًا في معاملتها معي، وأما عمي فكان لا يهتم كثيرًا بما يحدث لي وكأني امرأة غريبة لا تربطني به أية صلة، شكوت إلى الله كثيرًا ولم أيأس من مناجاته وانتظار الفرج منه أبدًا.

وفي بداية الفصل الدراسي الثاني من السنة الثانية شعرت بأني ألقي إليَّ طوق نجاة عندما أخبرني عمي بأن شابًا من قرية مجاورة طلبني للزواج وسألني عن رأيي في ذلك، قال إنه يعمل في مكتب البريد وله دخل مادي جيد جدًا، لم يكن كل ذلك يشغل بالي ما كنت أود سماعه منه هو كيف حاله مع أهله لكني أيقنت أن عمي لن يستطيع إجابتي عن ذلك؛ لذا طلبت منه أن يمنحني أربعة أيام للتفكير في الأمر، وفي الحقيقة أردت هذه المدة لأرسل من يأتي بالإجابة عن التساؤل الذي يشغل تفكيري عنه وهو معرفة تعامله مع أهله في البيت؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حدد معيار اكتشاف حقيقة أخلاق الناس وربطها

بتعاملهم مع أهلهم فقال: (خيركم خيركم لأهله...) ومن أجل ذلك أردت التأكد حتى لا أكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

أرسلت إحدى الجارات الحاذقات في اقتناص المعلومة بدون أن يكتشفها أحد إلى قريته لتأتي بالخبر اليقين ووعدتها بمكافأة مجزية عند عودتها، انتظرت ثلاثة أيام حتى اتصلت بي وطلبت مني أن آتي إلى بيتها بعد العصر، ذهبت إليها فأخبرتني أنه رجل ذو أخلاق عالية ولا يوجد أحد في القرية لا يحبه ويحترمه، أخبرتها بأني لم أرسلها من أجل معرفة أخلاقه مع أهل القرية وإنما لاكتشاف أخلاقه مع أهله داخل البيت فقالت لي وهي تعتدل في جلستها:

-أعلم أنك أرسلتِني من أجل معرفة أخلاقه في البيت.

-وماذا وجدتِ؟

-تحبه أختيه كثيرًا لأنه يحسن معاملتهما ويعتبرانه أباهما بعد موت أبيهم منذ ثمان سنوات، وأما أمه المريضة فهو يعتني بها كما لو كان خادمًا عندها؛ وطلَّق زوجته السابقة عندما دخل البيت ذات يوم فسمعها تسب أمه وترفع صوتها عليها.

-وكيف عرفتِ كل ذلك؟

-ذهبت إلى بيته وسلبت المعلومات بمهاراتي الفذة في جعل الآخرين يتحدثون بكل رحابة صدر.

علمت بأنها ذهبت بهيئة خاطبة تبحث عن عروس مناسبة لأحد أبناء أخيها فجعلت الأم المسكينة تنغمس معها في الحديث وتطلب منها أن تبحث لها عن زوجة لابنها، إنها امرأة ماكرة بحق وتجيد عملها بأحسن صورة، شكرتها على منحي المعلومة التي أرسلتها من أجلها ودسست يدي في حقيبتي ثم دفعت إليها بأحد خواتمي الذهبية ثم غادرت إلى بيت عمي.

لم أكتفِ بالمعلومة التي حصلت عليها عن الخاطب وإنما استخرت الله ثلاث مرات فشعرت براحة لهذا الزواج، حينها عزمت رأيي على إخبار عمي بموافقتي على الخاطب، انتظرت عودة عمي من العمل وأخبرته بأني موافقة على الزواج شريطة أن يوافق الخاطب على السماح لي بإكمال دراستي الجامعية، نظر إليَّ بلا مبالاة وهز رأسه إيجابًا، كانت حينها زوجة عمي تقف على باب المطبخ وبيدها كأس ماء وتنظر نحوي بشيء من السخرية، يبدو أنها سمعت شرطي وبدا لها أنه أحمق، لم ألقِ لها بالاً واتجهت إلى غرفتي.

بعد ساعة أتى عمي إلى غرفتي وأخبرني بأن الخاطب وافق على شرطي ويريد أن يكون الزواج الأسبوع القادم، استغربت من سرعته فسألت عمي عن ذلك فقال عمي:

- لا حاجة إلى تأخير الزواج لأن الرجل جاهز ولا يريد منا أن نفعل أي شيء سوى أن نمحك له بملابسك التي عليك.

- هذا أفضل، فأنا لا أحب الضجيج والمبالغة في التكاليف.

- فليكن إذن.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى الكلية وأنا أشعر بنشاط لأني سأتمكن أخيرًا من الخروج من جحيم زوجة عمي، أخبرت رقية بخبر خطبتي وأن زواجي بعد أسبوع من اليوم ففرحت لي كثيرًا ووعدتني بأن تحضر لتشاركني فرحتي، طلبت منها ألا تخبر أحد من الفتيات بالأمر لأنهن سيرغبن بالحضور ونحن قررنا أن يكون الزواج محدودًا فوعدتني بذلك.

وفي يوم الأربعاء تم عقد قراني على نديم وكانت رقية بجواري في هذا اليوم الجميل ورافقتني إلى بيت زوجي، بدأت صفحة جديدة من حياتي شعرت ببعض القلق حيالها غير أني وكلت أمري إلى الله ودعوته بأن يوفقني ويعوضني عن كل ألم مر بي، دخل الغرفة فوجدني جالسة على مقدمة السرير بثوبي الأخضر الذي ناسب بشرتي البيضاء فمنحني بريقًا ومظهرًا آسرًا، شعرت بتسارع نبضات قلبي عندما أغلق الباب خلفه ونظر إليَّ بابتسامة هزت أركاني وسرت في بدني رعشة خفيفة، اقترب مني ثم ثبت نظره على عينيَّ وقال بصوته الدافئ:

-لا خوف عليك يا سلمى ولا حزن! منذ اليوم سأكون نعيمكِ فكوني جنتي!

استحيت من كلماته وخفضت رأسي للأسفل وقد أصبح وجهي أحمرًا كأنما انسكبت عليه علبة طلاء أحمر، لم يقترب مني أكثر خشية أن يخيفني أو يزيد من خجلي، رفعت رأسي فرأيته يفرش سجادته ثم قال:

- قومي نصلِّي حتى يبارك الله لنا.

غطيت ما كان ظاهرًا من جسمي ووقفت خلفه، صلَّى بي ركعتين متأنيتين سحرني فيهما بعذوبة صوته وجمال تجويده، وبعد أن انتهينا من الصلاة التفت نحوي وقال بابتسامة:

- أمِّني على دعائي.

فهززت رأسي إيجابًا، رفع يديه وبدأ يدعو:

- اللهم بارك لنا في هذا الزواج! واجعله جنتنا في هذه الدنيا المتعبة! اللهم اجعل بيننا مودة ورحمة! اللهم قربنا به إليك وأبعدنا به عن الشيطان وحزبه! اللهم إنَّا نتعبَّد إليك به فاكتب لنا الإخلاص والقبول!

شعرت بطمأنينة وأنا أستمع إلى دعائه، كأنما سكب في قلبي ماء باردًا فأطفأ الخوف الذي كان فيه، التفت نحوي ثم اقترب مني وأنا أبادله الابتسامة ووضع يده اليمنى على ناصيتي ثم أتى بالذكر المأثور.

(20)

مبارك

أخبرت عارف بأني عقد النية على خطبة سلمى ولهذا بدأت عملاً الساعة الواحدة ظهرا إلى العصر مع إحدى الشركات العالمية عبر الإنترنت أقوم فيه بالمراجعة اللغوية للخطابات والوثائق التي يعملون عليها صباحًا قبل أن يتم اعتمادها ورفعها إلى رئيس مجلس الإدارة للتوقيع، فشجعني على ذلك وأخبرني أنه سيقدم لي المساعدة إذا تكدست عليَّ بعض الأعمال ولم أقدر على إنجازها بسرعة لتسليمها في الوقت المحدد، طبعًا هذا العمل هو ثاني عمل ألتحق به خلال هذين اليومين حيث إني أعمل بعد المغرب إلى الساعة العاشرة مساءً في دكانٍ للأواني المنزلية داخل سوق تجاري كبير في المدينة، أما الصباح فأقضيه داخل أسوار الكلية أحضر المحاضرات وأمارس هوايتي المفضلة في الآونة الأخيرة وهي النظر إلى سلمى من بعيد.

كان عمل ما بعد الظهر الأهم بالنسبة لي؛ إذ أن الأجر بالعملة الصعبة وكلما أنجزت أكبر كمية من الأعمال حصلت على أجرٍ أكبر، أما عمل ما بعد المغرب فأعده تكملة لا أقل ولا أكثر وبه أكون قريبًا من السوق فأتعرف على أسعار الأشياء التي

سأحتاجها للزواج، سألت أحد الأشخاص الذين يسكنون في قرية سلمى عن مهورهم فأخبرني بأنها نحو ثلاثمئة ألف ﷼، زدت من جهدي في العمل وجمعت ثلثي مبلغ المهر وكانت السعادة تملأني عندما شعرت أني أقترب من تحقيق الزواج بالفتاة التي اختارها قلبي، وستكتمل بها حياتي.

أبلغت أبي وأمي بما نويته ففرحا وأخبراني أنهما يتمنيان يوم زواجي منذ زمن بعيد، قال لي أبي بأنه سيجعل أمي تبحث عن أنسب فتاة لي، ابتسمت له وأخبرته بأني قد عثرت على الفتاة وهي تدرس معي في الجامعة، تفاجأ من كلامي وبدا لي عدم ارتياحه، أثنيت عليها كثيرًا وعلى أخلاقها وأدبها وأخبرته أنها أرملة فزاد انكماشًا، واصلت حديثي عنها أمامه حتى اقتنع أخيرًا ووافق على زواجي منها، أخبرته أني سأخبرهما باسمها ومكان سكنها بعد عدة أيام حتى يرافقاني لخطبتها، هز رأسه موافقًا فقبلته على رأسه وذهبت إلى غرفتي، وردتني بعض التساؤلات عن بعض عادات البلاد التي بدت لي نوعًا ما أنها غير منطقية، لماذا يحتاج الشاب البالغ القادر على الزواج إلى موافقة أمه وأبيه على الفتاة التي اختار الارتباط بها؟ لماذا يجب أن يقبلا بها أولاً ثم يسمحان له بالزواج بها؟ من الذي سيتزوج هل الشاب أم أمه وأبوه؟! ماذا لو لم يوافق أبواي على زواجي بسلمى هل كنت سأتخلى عن حبي لها ورغبتي في الارتباط بها على كتاب الله وسنة رسوله؟ وهل أخذ موافقتهما على الزوجة من البر أم لا علاقة له بذلك؟ لم أجد أي إجابة شافية لهذه التساؤلات التي

غزت عقلي لبرهة، لكني من داخلي شعرت بصوت يخبرني بأني محق في عدم اقتناعي بهذا الأمر؛ لأنه لا علاقة له بالصواب وإنما هي عقدة مجتمع اعتاد في لا وعيه أن يفرض سيطرته ولو بطريقة غير مباشرة على الأصغر، أو من يكون في كنفهم.

حصلت على عمل ثالث في قرطاسية الجامعة بعد أن تعلمت طباعة وتصوير الأوراق فكان ذلك دخلاً إضافيًا سيقرب من موعد تقدمي لخطبة سلمى، اتصل بي أبي ليسألني عما إذا كنت أحتاج شيئًا فأبلغته أني مكتفٍ ولا أحتاج سوى دعائه لي ثم أخبرته بأني أرسلت له بعض المال مع أحد الأشخاص وسيحضره له ظهر هذا اليوم، تفاجأ من كلامي فأخبرته أني أعمل منذ مدة وقد اقتربت من جمع مهر الفتاة التي أرغب في الزواج بها، والمال الذي سيصله اليوم هو من أجل أن يبدأ بإحضار العمال ليشرعوا في تجهيز غرفة نومي.

مرت الأيام وأنا أشعر باقتراب حلمي، لم يبقى لي سوى خمسين ألفًا فقط وأصبح قادرًا اتخاذ الخطوة القادمة وأتقدم لخطبتها، اقترب موعد الامتحانات النهائية وبدأ الجميع بالاستعداد لها باستثنائي إذ أن عندي ما هو أكثر أهمية من هذه المراجعة المبكرة، حلم أكاد أتلمس أطرافه وأشعر به يبتسم لي في الأفق، ها قد تمكنت من جمع أغلب المهر ولم يتبقَ سوى بضعة آلاف فقط وأمرها هيِّنٌ بإذن الله.

دخلت إلى القاعة في الصباح الباكر فسمعت الفتيات يتحدث عن زواج إحدى زميلاتنا في التخصص يوم أمس، لم

يشغل كلامهن تفكيري وجلست في مقعدي المفضل شمال القاعة، بدأت بالبحث عن سلمى ببصري بين الفتيات فلم أجدها استغربت تأخرها هذا اليوم ففي العادة تكون أول أو ثاني فتاة تصل إلى القاعة، قلت لنفسي لعلها ذهبت لتحضر شيئًا وستعود بعد لحظات، لكني سمعت رقية وهي تطلق رصاصة تستقر في منصف قلبي عندما أخبرت إحدى الفتيات أنها تفاجأت مثلهن بزواج سلمى ولم تعلم به إلا يوم أمس.

شعرت كأن الأرض تدور بي والهواء محشور في حلقي، خرجت من القاعة مع بدء توافد الطلاب وقد حضرت معظم الطالبات ولم أدرِ إلى أين أذهب حينها، كانت صدمتي بالخبر كبيرة جدًا ولا يستطيع أحد احتمالها، رغبت بالبكاء حينها لكني عجزت عن استجلاب الدموع فقد تحجرت في عيني ولو بكيت لاسترحت قليلاً، أصابني ألم شديد في قلبي أفقدني القدرة على التنفس فألقيت بنفسي عند أحد الجدران في الشارع، كان المارة ينظرون إليَّ ولا يدركون ما الذي أصابني لكن لا أحد منهم اقترب مني ليسأل عن حالي.

تغيبت ذلك اليوم عن الجامعة وعدت إلى السكن الطلابي فألقيت بنفسي على سريري وسحبت الغطاء فوقي، وردتني الكثير من الاتصالات غير أني لم أكلف نفسي حتى رفع الغطاء عني لأرى من المتصل، بقيت تحت الغطاء ينهشني البؤس وتجفوني الدموع التي تحمل ترياق راحتي، عاد عارف من الكلية وأزاح الغطاء عن وجهي فوجدني شاخص العينين منطفئ الوجه فسألني

إن كنت أعاني من شيء وأريد منه أخذي إلى الطبيب فهززت رأسي نفيًا وطلبت منه ألا يسألني عن شيء لعدم قدرتي على الكلام حينها، رفض أن يتركني بتلك الحالة وأصر على معرفة ما بي فقلت له بأني سأخبره بكل شيء فيما بعد ورجوته بأن يتركني الآن لأني أرغب بالنوم.

وافق على مضض وتركني بمفردي فعاودت سحب الغطاء على وجهي، جاء موعد الغداء فطلبوا مني الاستيقاظ تناول الطعام ثم أصلي الظهر فجلست على السرير بوجه يغطيه الحزن ثم قمت لأصلي الظهر وعدت إلى سريري مرة أخرى، أخبرتهم بعدم اشتهائي للطعام فزاد ذلك من خوف عارف عليَّ وعاود استجوابه لي مرة أخرى، حاولت التهرب منه بأن تناولت بعض اللقيمات ثم خلدت إلى النوم حتى العصر، استيقظت فوجدت أن الجميع ما زالوا نيامًا فلبست ملابسي واتجهت إلى قرية سلمى، لم أدرِ ما الذي كنت أريده حينها لكني ذهبت إلى القرية، بقيت أمشي في الطرقات حتى أدركني غروب الشمس.

صليت المغرب وخرجت أمشي بين البيوت بلا هدى، أتلفت يمنة ويسرة علِّي أتعثر بنور وجهها من أحد البيوت المنتظمة عن جانبي الطريق، كنت أفتش عنها بعيون قلبي التي أصابها الذبول من فرط الاشتياق إليها، لو سابقتني سلحفاة ساعتها لسبقتني بفارق كبير، كانت الأرض متشبثة بقدمي بشدة ولا أقدر على تحريكهما سوى شعرة فشعرة، وددت لو صرخت بأعلى صوتي لعلها تسمعه وتطل بوجهها المنير، أطلقت العنان

لكل حواسِّي في محاولة يائسة لرؤيتها، وعندما فقدت الأمل في الأمر كوَّرت قبضة يدي اليمنى وانهلت ضربًا على صدري؛ ليتوقف قلبي عن الهذيان باسمها، أخبرته أنها لم تعد تسكن في هذه الجغرافيا التي تحيط بي وعليه أن يدعني وشأني، شعرت بفتور في صدري من شدة الضرب المتواصل، سقطت على ركبتي فأسرع إليَّ رجل كان يمشي خلفي ولم أنتبه له، سألني عما إذا كنت أشكو من شيء فنظرت إليه بعينين واهنتين بأني بخير وشكرته على سؤاله، ساعدني في الوقوف إلى قدمي فواصلت طريقي وعدت إلى السكن الطلابي.

(21)

عارف

تفاجأت من الاكتئاب الحاد الذي أصيب به مبارك بدون سابق إنذار، حاولت اكتشاف سبب هذه الحالة الغريبة فلم يمنحني لا حقًا ولا باطلاً، يكتفي بالصمت القاتل وعيناه لا تفارقان الأرض أبدًا، بالغت في الإلحاح عليه لمعرفة ما أصابه لكني عجزت عن ذلك، سألت زملائي في الغرفة إذا كان أحدهم يعلم بشيء عن سبب حالته فكان جواب الكل أنهم لا يعلمون أي شيء، توقعت أن يكون تأثره وحزنه المميت هذا بسبب شيء حدث معه داخل الكلية فانتظرت حتى اليوم التالي، سألت في القاعة إن كان قد حدث شيء جديد لم أعلم به فأخبرني المندوب ألا جديد سوى أنه سمع الفتيات يتحدث يوم أمس عن زواج إحدى الزميلات.

توقعت مباشرة أن تكون التي تزوجت هي سلمى، وأصيب مبارك بصدمة عندما سمع بذلك لاسيما وأنه أنهك نفسه بثلاثة أعمال جعلته يأن طوال الليل وهو نائم من التعب، ذهبت إلى السكن وسألته عما إذا كان للأمر علاقة بسلمى فأطلق زفرة أصابني لهبها حتى خشيت أن أحترق بها، قلت له:

-لقد حذرت منذ البداية وطلبت منك أن تتحدث معها لترى هل تبادلك المشاعر أم لا فأبيت وأخبرتني أن الأمر لم يحن بعد، وها أنت اليوم في هذه الحالة بسبب تسويفك وعدم جرأتك على التحدث معها.

تدفقت الدموع من عينيه لأول مرة منذ أن تعرفت عليه، ضممته إلى صدري فسمعت له أنينًا كأنين الطفل الرضيع الذي يرغب بحضور أمه، بكى بحرقة حتى سكن قليلاً ولم تبقَ لديه سوى بقايًا من عبرات تجعل جسده يهتز بين الفينة والأخرى، توقف عن البكاء تمامًا وابتعد عني في محاولة لتجميع نفسه التي بعثرها أمامي قبل لحظات فطلبت منه أن يحاول البث لي لعله يستريح قليلاً فهز رأسه نافيًا، لم أرغب بالضغط عليه فتركته ليهدأ.

انطفأ نور وجهه الذي كان بمثابة السعادة لمن يتحدث معه، وتقدم في العمر مئة سنة أو أكثر في لحظة واحدة، كأنما حفر الوقت أخاديد في روحه بدون مقدمات، فضلت ألا أقترب منه كثيرًا فأزيد من معاناته ولم أبتعد لدرجة أن يشعر بأني تخليت عنه وتركته يعاني بمفرده، أبقيته تحت ناظري لكن مع ترك مسافة كافية تشعره ببعض الراحة.

مضى أسبوع كامل لم يتحدث معي فيه حول شيء، وفي بداية الأسبوع الثاني يأتي ويخبرني بأن الحالة التي أصابته تشبه

كثيرًا حالة شخص من عالم آخر تعرف به وشكا له همه وها هو الآن يعاني المعاناة نفسها أو ربما أسوأ منها، لم أفهم عما كان يتحدث لكني فضلت الصمت حتى لا يشعر أني أتضجر من حديثه، سكت لبعض الوقت ثم أخبرني أنه لا يريد أن يصل ذلك الشخص إلى ما وصل إليه هو بعد خسارة سلمى، نظرت محاولاً الالتقاط بطرف جملة تجعلني أفهمه فلم أجد، بقيت ساكتًا فأضاف:

- على الإنسان أن يكون مفيدًا حتى وإن كان غارقًا في بؤسه.

رفعت عينيَّ إلى عينيه وقلت بحسرة:

- أنت جيدٌ جيدًا في الاهتمام بالآخرين وتطبيب جراحاتهم، سيء جدًا في فعل ذلك مع نفسك.

- ولكن يا صديقي..

قاطعته قائلا:

- هذه الحقيقة؛ فلا تحاول نكرانها.

هز كتفيه وكأنه وافقني فيما قلت، مضت الأيام وأصبح يفصلنا أسبوع واحد فقط عن الامتحانات النهائية وحالة مبارك المأساوية على حالها لم يجد فيها جديد حتى أني اعتدت عليها، بدأت الامتحانات فقررت أن أجعله يركز على الأداء بشكل جيد جدًا فيها وأن يؤجل أحزانه إلى وقت آخر بعد انتهائها، هز رأسه

موافقًا وبدأ فعلاً بالمذاكرة معي لكن حالته انتكست من جديد في صباح اليوم التالي بعد خروجه من الامتحان عندما رآها مصادفة في الرواق.

احتجت مدة طويلة حتى تمكنت من جعله ينسى أمرها بعض الشيء أو هكذا أوهمني لأتوقف عن محاولاتي الدؤوبة في التخفيف عنه، لاحظ الجميع في الكلية التغير الذي أصاب مبارك وبقاءه بمفرده معظم الوقت، لم يعد يتحدث مع أحد غيري داخل أسوار الكلية، حتى إنه توقف عن الرسم تمامًا وعندما طلبت إحدى المرات أن يشارك في مسابقة الرسم التي ستكون على مستوى الوطن الكبير وأن جائزتها مغرية فقال له بصوت ذابل:

- هل كنت تعتقد أني شاركت في كل المسابقات الماضية وبذل كل جهدي من أجل جائزة أو مال؟ إذا اعتقدت ذلك فأنت واهم!

- لم أفهم.

- لم أحارب من أجل المركز الأول إلا لأحصل على جائزتي منها عندما أقرأ الابتسامة في عينيها حينما تحضر وتقول لي: (مبارك لك يا مبارك).

هززت رأسي بحسرة عليه وقلت:

- لقد شاخت روحك يا مبارك.

- كيف اكتشفت الأمر؟ هل أصبحت تجاعيد قلبي واضحة إلى هذه الدرجة؟

- نعم يا صديقي.

انتهت السنة الدراسية الثانية بأقل الأضرار كما يقال؛ تمكنت من النجاح بتقدير جيد وكذلك مبارك، لم أتوقع أن ينجح بسبب الحالة التي كانت تسيطر عليه لكن لحسن حظه أنه تمكن من النجاح بعد كل ما عاناه من زواج سلمى التي ما زال يثقب أذني بالحديث عنها حتى بعد أن انتهى كل شيء بالنسبة له ولا يقدر على الارتباط بها.

بدأت السنة الجامعية الثالثة فقررت أن تكون سنة مليئة بالتفوق والحيوية، لكن عندما وجدت أن صديقي مبارك ما زال في قوقعة بؤسه انكسرت مجاديفي وأشفقت على حاله، حمدت الله أني لم أذق ألم الحب المفرد ودعوته أن يرزقني حبًا متبادلاً أو يحرمني منه إلى الأبد حتى لا أصير في يوم من الأيام مثل مبارك وأجلس جلسته لا يجذبني شيء إلى الحياة ولا رغبة لي في محاولة التخلص من هذه الكآبة التي تصبح رغمًا عني حالة مرضية يعسر علاجها.

(22)

نجود

بعد وفاة أبي منذ أربع سنوات ونحن نواجه وضعًا ماليًا صعبًا، تكاثرت عليَّ الديون ولم يعد بمقدوري الاستدانة أكثر، باعت أمي ذهبها فغطى احتياجات البيت لمدة من الزمن وساعدني في تسديد جزء كبير من الديون، بحثت عن عمل بمهاراتي في الترتيب والتنسيق وكتابة الرسائل الرسمية التي اكتسبتها من خلال انضمامي إلى ملتقًى طوعيٍ في مدينتنا.

لا أمتلك شهادة جامعية وهذا صعَّب من مهمة حصولي على عمل، فكرت بالتقديم في كلية العلوم التي أنشئت حديثًا ولا تبعد عن بيتنا كثيرًا فربما يكونون بحاجة إلى سكرتيرة أو مدخلة بيانات في الحاسوب، توكلت على الله وحملت ملفي ثم اتجهت إلى مكتب أمين الكلية، قدمت على الوظيفة فأخبرني بأن المقابلات الشخصية للحصول على الوظيفة ستكون بعد أسبوع فشكرته وعدت إلى البيت.

تمكنت من الحصول على الوظيفة بعد أن كنت أكثر المتقدمين على الوظيفة خبرة، وطُلب مني مباشرة العمل منذ صباح اليوم التالي، وفَّر لي عملي سكرتيرة لعميد كلية العلوم

دخلاً جيدًا مكنني من إعالة أمي وأخواتي الأربع، وجعلني أتمكن من تسديد ما تبقى عليَّ من ديون، سعيت إلى صقل مهارتي أكثر لزيادة كفاءتي في العمل فدخلت إحدى دورات السكرتارية التنفيذية وإدارة المكاتب عن بعد فأضافت لي الكثير من المعارف والمعلومات والمهارات التي كنت لا أعرفها.

طلب مني العميد أن آخذ بعض الأوراق إلى كلية الآداب التي تبعد عن كلية العلوم مسافة عشر دقائق مشيًا على الأقدام، خرجت قرابة الساعة العاشرة من المكتب مع بدء اشتداد حرارة الشمس، حاولت أن أسرع قليلاً حتى أتخلص من هذا الحر المقيت، اتجهت إلى مكتب العميد فأخبرني سكرتيره أن منشغل قليلاً وطلب مني الانتظار، وبعد مضي ربع ساعة من الجلوس والانتظار تمكنت أخيرًا من الدخول إليه، كان رجلاً في أوائل الخمسينات من عمره تقريبًا -ممتلئ الوجه، أبيض البشرة، يرتدي نظارة على عينيه-، ألقيت التحية ثم مددت بالأوراق إليه فارتفع قليلاً من على كرسيه وتناولهن مني، ألقى نظرة عليهن ثم قال:

- يمكنك العودة إلى عملك، عندما أنتهي منهن سأجعل السكرتير يحضرهن.

- حسنًا.

غادرت المكتب لأعود إلى الكلية وأكمل ما تبقى من يوم دوامي، ألقيت نظرة على شكل الباحة من الدور الأول فوجدتها تختلف في تصميمها عن باحة كلية العلوم فهذه تبدو أكثر أناقة

وترتيبًا، واصلت طريقي متجاوزة الرواق القريب من مكتب العميد قاصدة الدرج القريب لكني وجدته يعج بالطلاب فاضطررت إلى إطالة طريقي للدرج الثاني الذي يفضي إلى وسط الباحة.

وصلت إلى الدرج فوجدته شبه فارغ من الطلبة وقبل أن أضع قدمي في أول درجة لفت انتباهي طالب حاول تفادي الاصطدام بفتاة تمر في الرواق ويبدو أنها لم تنتبه له، وأثناء تفاديه هذا الاصطدام انزلقت رجله في الدرجة وكاد أن يسقط في الدرج لولا إمساك الدكتور ربيع به في اللحظة الأخيرة، لم أعرف في كلية الآداب إلا الدكتور ربيع الذي يحاضر في مادة اللغة العربية العامة عندنا في الكلية وقد رأيته هناك أكثر من مرة، سمعته وهو يقترب من ذلك الشاب الذي بدا وجهه شاحب للغاية ويبدو الحزن واضحًا عليه فقال له:

- هل أنت بخير يا مبارك؟

هز الشاب رأسه ولم يجب بكلمة، واصل الدكتور ربيع الاطمئنان عليه قائلاً:

- لماذا تبدو بهذه الحالة يا بني؟ هل تشكو من شيء؟

- أنا بخير، شكرًا لك.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.

تذكرت أني ما زلت واقفة في مكاني فتحركت حتى لا أتأخر عن عملي، وصلت إلى الكلية فوجدت العميد يوشك على مغادرة المكتب فأخبرته أنهم سيرسلون الأوراق بعد أن ينتهي منهن عميد الآداب، شكرني وقال:

-أنا ذاهب إلى رئاسة الجامعة، إذا طرأ شيء فارفعيه إلى الدكتورة نجاة.

- سأفعل.

تمنيت ألا يطرأ شيء وأضطر للذهاب إلى الدكتورة نجاة، طبعًا هي نائبة العميد للشؤون الأكاديمية غير أنها امرأة متسلطة ولا تطاق، عندما أضطر للذهاب إليها من أجل أمر ما تكون تلك أسوأ المهام التي أتعامل معها في عملي هنا، مضى باقي اليوم بشكل جميل للغاية ولم يحدث ما يستدعي ذهابي إلى الدكتورة نجاة ونجوت من تسلطها.

وصلت إلى البيت الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة فصليت الظهر ثم شرعت في إعداد الغداء لأمي المريضة وأخواتي الصغيرات، وبعد انتهائي من إعداد الغداء ذهبت لألقي نظرة على أمي فوجدتها نائمة وأما أخواتي فقد كنَّ يجلس في الغرفة الأخرى أمام التلفاز يشاهدن مسلسلاً كرتونيًّا، أيقظت أمي وطلبت من الفتيات مساعدتي في تقريب الطعام، وعندما انتهينا غسلت المواعين ونمت حتى صلاة العصر.

استيقظت على صوت غريب يطلب مني أن أساعده، فركت عينيَّ وأجلت ببصري في المكان فوجدت أني في غرفتي، ما هذا الصوت الذي أتاني من تلك البئر الغريبة؟ يبدو أنه كان كابوسًا سيئًا، استعذت بالله وقمت لأصلي العصر، ذهبت إلى غرفة أمي لأتفقدها وأرى إذا كانت بحاجة لشيء فلم أعثر عليها في غرفتها اتجهت إلى الغرفة الأخرى فوجدتها تجلس مع الفتيات أمام التلفاز، وعندما رأتني قالت:

- كان الله في عونك يا صغيرتي! يبدو أنك تتعبين كثيرًا في عملك.

- لا تقلقي عليَّ يا أمي أنا بخير.

سألتها إذا كانت ترغب بأن أحضر لها شيئًا فشكرتني وطلبت مني أن أنضم إليهن، كنَّ يشاهدن مسرحية استقبال استثنائي لفرقة محلية، جلست بجوار أمي فعاودني الصوت الذي سمعته في الكابوس، شعرت أني قد سمعته في مكان ما لكن لا أدري أين، شربت ماء وحاولت طرد الصوت من رأسي بمشاهدة المسرحية، بقينا في جلستنا تلك حتى انطفأت الكهرباء مع أذان المغرب.

(23)

عارف

صار نومي متقطعًا في الآونة الأخيرة بسبب نوبات المشي أثناء النوم التي يعاني منها مبارك خلال الأسبوعين الماضيين، أول مرة رأيته بهذا الحالة قبل عشرة أيام أثناء استيقاظي في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل لشرب بعض المرة، خرجت إلى الباحة الأمامية للسكن حيث توجد برادة الماء فوجدته يجلس متوركًا ويده اليمنى على صدره، لم أعرفه في البداية لكن عندما اقتربت منه تمكنت من التعرف عليه، استدرت حوله وجلست أمامه فلم ينتبه لوجودي، كانت عيناه تنظران إلى الأمام وبدأ عليه السكون والطمأنينة.

بقي في جلسته تلك قرابة النصف ساعة ثم نهض من مكانه ونفض الغبار الذي أصاب ملابسه وعاد إلى فراشه، كل ذلك حدث أمامي ولم يشعر بي حتى عندما وضعت يدي على كتفه، حاولت أن أسأله عن الأمر في الصباح التالي لكني تراجعت وخشيت أن أكون سببًا في تأزم حالته النفسية عندما يعلم بما يحدث معه؛ لهذا قررت أن أبقي الأمر سرًا وأكتفي بمراقبته خلال الليل حتى لا يتسبب في أذى نفسه.

وبعد مضي ثلاثة أسابيع من هذه النوبات التي تصيبه في يومي الأربعاء والأحد من كل أسبوع وجدته يأتيني بعد المغرب في المسجد ويخبرني بأن هناك شخص من عالم آخر طلب مساعدته للحصول على الفتاة التي يحبها، بدأت تساورني الشكوك حول إصابة مبارك بمرض نفسي خطير ولن يتعافى منه بسهولة، قال لي بأنه كان يلتقيه خلال الأسابيع الماضية في الساعات المتأخرة من الليل ويستمع إلى شكواه من التعامل الطبقي الذي يعانيه من ابن عم حبيبته وأخبرني برغبته في مساعدته، نظرت إليه وقلت:

- مبارك، هل أنت بخير؟ لأنك تحدثني عوالم أخرى وأشياء لا يقبلها عقلي.

- هل تظنني جننت؟

- لم أقل هذا، لكن على الأقل حاول التخلص من هذا الهذيان.

- سأعذرك لأنك لم ترَ ما رأيت.

هززت كتفي وابتسمت له ثم قلت في محاولة مني لتغيير الموضوع:

- افتقدت رسوماتك! منذ متى لم ترسم؟

- لم أتوقف عن الرسم ليوم واحد، هل تريد أن ترى آخر رسوماتي؟

استغربت من قوله بعدم توقفه عن الرسم، كيف لم يتوقف عن الرسم وهو منكمش على نفسه المدة الماضية كلها، ولم يطلب مني أن أرى لوحاته التي أكملها، هذه ليست عادته، يبدو أني لم أعد أعرفه، ابتسمت له وقلت بحماس شديد:

- بالتأكيد أريد أن أراهن.

- هيا بنا إلى السكن لتراهن.

رافقته لأرى هل هو جاد في كونه لم يتوقف عن الرسم أم أن جميع الرسومات قد أرانيهن من قبل، جلست على السرير بانتظار استخراجه للوحات من الصدوق الذي تحت سريره، وضعهن أمامي فدهشت بكمية اللوحات الجديدة التي عرضهنَّ عليْ، نظرت إليه في دهشة وصدمة وقلت:

- ولكني اعتقدت أن حلة البؤس التي أصابتك أطفأت موهبتك!

- هذا ما حدث معي في الأيام الأولى، لكني تمكنت بعد ذلك من التخفيف عن نفسي بممارسة أكثر شيء أجيده في الدنيا، الرسم! على المبدع أن يستغل بؤسه بالطريقة الصحيحة.

-لا يمكنني أن أصدق ما ترى عينيَّ كل هذا الجمال تخفيه في صندوق تحت سريرك.

- لماذا؟

- لأنك رسَّام مبدع وأنت أولى بإظهار إبداعك من هؤلاء المزيفين الذي يتقيؤون بما يتوهمون أنه إبداع.

ضحك من كلامي ورد قائلاً:

- كنت أرسم من أجل الآخرين وقد كلفني ذلك الكثير، أما الآن فلم يعد يعنيني سوى نفسي، قررت أن أرسم من أجلي فقط.

ربما تكون وجهة نظره صحيحة في التوقف على الرسم من أجل إرضاء الآخرين وأن يسعى لإرضاء نفسه بإبداعه لاسيما وأنه مبدع حقيقي وليس مخدوعًا بعباءة المبدع التي ألبسها نفسه، شعرت بشيء من الاطمئنان عليه لكن سرعان ما تلاشى اطمئناني عندما تذكرت كلامه عن ذلك الشخص الذي من العالم الآخر حسب كلامه، ماذا يعني بالعالم الآخر؟ هل يقصد مخلوقات من جنس غير بشري؟ أم هم بشر بسمات تختلف عنا؟ ما الذي أقوله الآن؟ لن أجعله يفسد عقلي بهذيانه، يجب أن أنسى جميع الكلام الذي قاله لي.

تفقدته طوال ليالي الأسبوع الرابع فوجدته يغط في نوم عميق ولا يستيقظ من فراشه أبدًا، حمدت الله على تحسن حالته وانقطاع نوبات المشي أثناء النوم عنه، في الصباح لقيني الدكتور ربيع في الكلية وسألني عن الحالة الكئيبة التي تلازم مبارك في الآونة الأخيرة؛ لكوني أقرب الطلاب إليه ولا بد أني

أعلم بما أصابه، أخبرته بأنه يواجه بعض الضغوطات النفسية لكنه تمكن من التغلب عليها وقد بدأت حالته بالتحسن.

في يوم الاثنين من الأسبوع التالي دخلت إلى الغرفة بعد العصر فوجدت مبارك يضع بعض الملابس في حقيبة ظهره بالإضافة إلى أدوات الرسم ثم رأيته يستخرج ورقة بيضاء كبيرة من تحت السرير ويحملها بيده، استغربت منه وسألته عن وجهته وهذا الرحلة المفاجأة التي طرأت له فقال بوجه مشرق افتقدته منذ مدة بعيدة:

- سأعود فارغًا من كل شيء يا صديقي.

- ماذا تعني؟

- غدًا تعرف.

غادر المكان بدون أن يضيف أي كلمة أخرى، بدأت الأفكار السيئة تغزو رأسي؛ فمبارك لا يبدو بكامل قواه العقلية في الآونة الأخيرة ويبدو أنه سيرتكب حماقة لا تحمد عقباها، أريد أن أنقذه من هذا الجنون الذي يسيطر عليه، غير أني لا أقدر على فعل شيء سوى الدعاء له، وأرجو أن يكون تخميني خاطئًا وأن يكون بخير، حاولت اللحاق به لكني كنت متأخرًا إذ اختفى تمامًا ولم أعثر عليه بالخارج كأنما تبخر ولم يعد له أثر.

(24)

مبارك

أخبرني ميمون أن عماد ابن عم حبيبته سلافة يأتي إليه كل يوم إلى الحديقة يعايره بفقره ويخبره بأنه لا يليق بعائلتهم المرموقة وعليه أن يعثر على فتاة من مستواه، لم يكتفِ بفعل ذلك معه بل حاول إغراء عائلته بالمال ليجبروه على الزواج من قريبته، وفي آخر مرة كان حزينًا وقال لي بأن سلافة لم تأتِ إلى الحديقة منذ أسبوعين ويبدو أن كلام عماد صحيحًا بأنها قررت تركه والارتباط بعماد.

شعرت بالمسؤولية تجاهه فأخبرته بأن عماد يحاول خداعه ليخلو له الجو ويتمكن من الزواج بسلافة، وعدته بأن أساعده للانتصار عليه فنظر إليَّ والدموع تترقرق من عينيه وقال:

-من وقع في حب غيمة أشعرته بالبلل في كل لحظة، تراه يمضي أيامه في البحث عن نفسه، ويشعر بالألفة والغرابة تجاه كل الأشياء في آن واحد، ولا يدري ماذا يفعل حتى يتخلص من تلك الفجوة التي تتضخم في روحه، كل يوم أكبر من سابقه.

طمأنته بأن الأمر ستكون على ما يرام، وطلبت منه التوقف عن القلق واتفقت معه على أن تكون رحلتنا إلى عالمهم في عصر اليوم التالي، سألني عن كيفية ذهابي إلى العالم الآخر وهو لم يجد بعد الطريق الذي سيمكنني من تجاوز هذه الجغرافيا التي أعيش فيها والنفاذ إلى عالمهم فأخبرته بأن وجدت طريقًا في أحد الكتب التي اقتنيتها من مكتبة المدينة القديمة.

وفي عصر اليوم التالي وظبت حقيبتي وحملت أدوات الرسم معي؛ لأني توقعت استفادتي منها في رحلتي بعد أن أخبرني ميمون ذات مرة بحب والد سلافة للفنون، مؤكد أن لوحة مني ستشكل فرقًا كبيرًا في المعادلة، قبل خروجي من الغرفة لقيني عارف فسألني عن وجهتي لم أصرح له بشيء وإنما اكتفيت بأن ألقيت عليه بعض الجمل المبهمة ثم غادرت.

وجدت ميمون بانتظاري داخل الكلية في أول مكان التقينا فيه، أحضرت له ماءً من البرَّادة القريب من القاعة وطلبت منه أن يشربه، استغرب من طلبي فأخبرته بأن هذا الأمر ضروري في هذه الرحلة، هز رأسه موافقًا وشرب الماء دفعة واحدة، بدأ جسمه بالتشنج قليلاً فوقع على الأرض بقي يتألم مدة من الزمن قبل أن تسكن حركته ونبتت له ملامح بشرية فابتسمت له وأخبرته بأنه أصبح جاهزًا، لم يفهم كلامي عن كونه جاهزًا فأخبرته أن شربه للماء الذي أحضرته جعله يصبح كالبشر، لم يصدق كلامي فأخذته إلى مرآة قريبة، وعندما رأى نفسه ذعر في

البداية لكنه بعد ذلك أخذ يتلمس وجهه وهو يضحك باستغراب.

غادرنا الكلية واتجهنا نحو الجبال الواقعة شمال المدينة، مشينا حتى اختفى البنيان عن أنظارنا فطلب ميمون أن نستريح قليلاً لأنه لم يعتد بعد على جسده الجديد، استلقى على الأرض ورنا ببصره نحو الشمس التي توشك على المغيب، بدا الحزن على وجهه لوهلة وقال:

-أتعلم بأني صرت أؤمن بأن الحب مجرد كلام يمكننا قراءته في الكتب، أو الاستماع إليه في المذياع، لكن لا يمكننا الاستمتاع به في حياتنا اليومية، قلبي يؤلمني كثيرًا؛ لأني صدقت بوجود شيء أسطوري اسمه الحب، كيف تخدعني سلافة بتعاملها وتوهمني بأنها تحبني؟

-هون على نفسك يا ميمون.

-أنت الذي تقول لي هكذا؟! أنسيت كلامك لي بالأمس عن سلمى؟

-أرجوك لا تفتح هذا الموضوع مرة أخرى.

-هذا إذا لم تفتحه أنت.

لم أدرِ بماذا أجيبه؛ فقد كان محقًا في اعتقاده بأني لا أمتلك شيئًا أتحدث عنه سواها، كم أشتاق إلى عينيها الناعستين اللتين تجلبان السلام إلى روحي، وطريقتها في المشي والحديث، لا أبالغ

إن قلت إنها آية في كل شيء، يقطع عليَّ حبل أفكاري سؤال ميمون المباغت:

- أين ذهبت بفكرك؟ هل تفكر بها؟

- أفكر بمن؟!

يبتسم ثم ينظر إلى الأفق ويقول:

- ماذا سيشغل بال الشجر غير الغيث.

هززت رأسي ووضعت يدي على كتفه، ثم طلبت منه أن نواصل طريقنا، سألني عن الوجهة التي أتجه به إليها فأخبرته بوجود خط من السراب يفصل بين كل العوالم وبين كل عالم وآخر يوجد مجموعة من الجنود من الجانبين الذي لا يسمحون لأحد بالمرور إلا بعد أن يخبرهم بأنه لا ينوي الإضرار بالعالم الذي يقصده ويكتشفون صدقه من خلال التحديق في عينيه، توقف عن المشي وأخبرني بأنه يشعر بالخوف؛ إذ ماذا لو فشلنا في إقناع الجنود ولم يسمحوا لنا بالمرور؟ طلبت منه أن يتوكل على الله وسنتمكن من تجاوزهم بكل سهولة ويسر.

غربت الشمس فواصلنا طريقنا تحت ضوء القمر الذي لم يكتمل بعد، مشينا قرابة الساعتين في سكون الليل حتى لاحت لنا المشاعل من بعيد فأخبرت ميمون بأننا في الطريق الصحيح ورؤيتنا للنار دليل على اقترابنا من الخط الفاصل بين العالمين، طلبت منه أن نستريح في مكاننا حتى طلوع شمس اليوم التالي؛ لأن الجنود يخشون طوارق الليل وذهابنا إليهم في هذا الوقت

سيجعل منهم عدوانيين، وافقني في رأيي وجلس بجواري ونظر إلى مشاعل الجنود البعيدة وسألني:

- هل تعتقد أننا سننجح؟

- قل: يا رب!

- يا رب!

مضت ساعة من الصمت والاكتفاء بالنظر إلى السماء التي كانت صافية في تلك الليلة، كنت طوال الرحلة أحاول طمأنة ميمون مع أن ضربات قلبي سريعة وأشعر بشيء من الخوف، هذا المرة الأولى التي أخرج في مغامرة كهذه وإن نجوت منها فلن أكررها أبدًا، قطع عليَّ حبل أفكاري صوتًا خشنًا أتى من خلفنا كأنه صاعقة شديدة:

- من أنتما؟ وما الذي أحضركما إلى هذا المكان؟

فقدت القدرة على الرد كأنما ابتلعت لساني من المفاجأة، أما ميمون فقد كان جسمه يرتعش كأنه عصفور سكب عليه ماء في يوم شديد البرودة، بلعت ريقي بصعوبة ورفعت رأسي نحوه في محاولة يائسة مني في محاولة استذكار الجملة التي قرأتها في الكتاب، نظرَّ في عينيَّ فرأيت الشرر يتطاير من عينها في لحظات صمت شعرت كأنها دهرًا كاملاً من الرعب الذي ملأ جسدي في تلك اللحظة.

اقترب منا أكثر فتبينت ملامح وجهه، نفرت منه واستحال خوفي إلى اشمئزاز مشوب بشفقة، لم أدرِ من أين أبتدأ كلامي معه؛ فهي المرة الأولى التي أرى فيها شيئًا بهذه الصورة، عظام وجهه البارزة، وشيء أخضر يغطي شفتيه كأنما نبت عليهما العشب، وتورم في خده الأيمن، وشعر رأسه الذي يبدو أنه لم يتفقده منذ مدة بعيدة، وثيابه الرثة التي كأنما رسم عليها طفل عابث خريطة العالم على عجالة، كل شيء فيه يبعث شعورًا بعدم الارتياح.

(25)

نجود

اعتدت روتيني اليومي حيث أستيقظ في الرابعة والنصف فأصلي الفجر ثم أنظف البيت وأوقظ أمي لتصلي، بعد ذلك أجهز الإفطار وأوقظ أخواتي ليبدأن بالاستعداد لمدرستهن، وبعد أن نتناول الإفطار أذهب إلى عملي في كلية العلوم، أعود كل يوم في تمام الساعة الواحدة ظهرًا فأصلي الظهر ثم أعد طعام الغداء، وبعد الانتهاء منه نتناوله معًا وأنام إلى العصر.

تردد ذلك الكابوس كثيرًا خلال الأيام الماضية وفي كل مرة أسمع ذلك الصوت يطلب المساعدة مني، في بادئ الأمر كان مجرد صوت قادم من بئر غريبة لم يسبق لي أن رأيت واحدة مثلها، لكن في الأيام الأخيرة بدأت أرى ملامح صاحب الصوت، بدا لي وجهه مألوفًا غير أنه لم يكن واضحًا تمامًا، وفي آخر مرة ظهر أمامي بكل وضوح، وجه غارق في الحزن والدموع لا تتوقف عن الهطول من عينيه، لقد عرفته إنه ذلك الشاب الذي شاهدته في كلية الآداب عندما ذهبت بالأوراق إلى العميد.

استيقظت من نومي مفزوعة من هذا الحلم الذي بات يلازمني ويوقظني كل ليلة لاهثة من شدة الخوف، نظرت إلى

ساعة الجدار فوجدتها تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، حسوت رشفة من كأس الماء الذي على درج السرير الأيسر، قرأت الأذكار وتحولت على الجنب الآخر ثم أحكمت وضع الغطاء على نفسي، حاولت النوم لكني خفت من عودة الكابوس مرة أخرى، فكرت في صلاة ركعتين غير أني عدلت عن الفكرة عندما راودني خوف من الذهاب إلى الحمام من أجل الوضوء والعودة من جديد إلى الغرفة في هذا الظلام الذي يعم المكان، سبَّحت كثيرًا حتى غططت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا في الخامسة فجرًا على صوت أمي وهي تطلب مني أن أصلي الفجر قبل شروق الشمس الذي لم يتبقَ عليه الكثير.

عزمت على الذهاب إلى كلية الآداب والبحث عن ذلك الشاب لأرى ما الذي يريده مني حتى يتردد على منامي بهذا الشكل المخيف الذي لم أعد أقدر معه على النوم بشكل جيد، أنهيت عملي في الثانية عشرة وذهبت لأبحث عنه في كلية الآداب، طفت كثيرًا في أروقة الكلية حتى شعرت بالتعب ولم أعثر عليه، اتجهت إلى مكتب اللغة العربية لأسأل الدكتور ربيع عنه لكني لم أجده هناك وعدت إلى البيت ذلك اليوم بخفي حنين، لا أنا وجدت الشاب ولا أنا تمكنت من العثور على الدكتور ربيع الذي يستطيع أن يوصلني إليه.

ترددت كثيرًا على كلية الآداب باقي أيام الأسبوع لعلي أتمكن من العثور عليه لكن لا فائدة، وعندما سألت الدكتور ربيع عنه أخبرني أنه لم يره منذ ذلك اليوم الذي منعه من السقوط في

الدرج، استغرب سؤالي عنه فأخبرته بأني أريده في أمر ضروري وطلبت منه أن يساعدني في الوصول إليه، وعدني بأن يسأل صاحبه عنه وإذا تمكن من إيجاد أي معلومة فسوف يبلغني على الفور.

انتهى الأسبوع ولم يردني أي خبر من الدكتور ربيع والكوابيس لم تتوقف عني يومًا واحدًا بل ازدادت كثيرًا حتى صرت لا أنام إلا ساعتين أو نحوها خلال الليل؛ لهذا رأيت أن أبحث عنه بنفسي، سألت عنه بعض الفتيات وعندما وصفته لهن قلن إنه معروف في الكلية بلقب الرسَّام ودللني على شاب اسمه عارف دائمًا ما يكون برفقته، ذهبت إلى ذلك الشاب فوجدته يجلس على كرسي خشبي في باحة الكلية.

- هل أنت عارف صاحب الرسّام؟

- نعم، ما الأمر؟

- أنا أبحث عنه منذ أيام، هل يمكنك أن تخبرني أين أجده؟

- فيمَ تحتاجينه؟

- أحتاجه في عمل ضروري.

- لم أره منذ الثلاثاء الماضي، حتى أن جواله مغلق.

- هذا يعني أنك لا تعرف أين أجده؟

- للأسف!

- شكرًا لك.

غادرت إلى البيت وفي داخلي قرار بتجاهل الأمر؛ لأني قد بذلت كل جهدي للعثور عليه لكني فشلت في ذلك، حتى صديقه أخبرني بأنه لا يعلم شيئًا عنه، يجب ألا أشغل نفسي بالأمر وسأعتبر كأنه لم يكن، لحظة واحدة! ماذا لو كان ما هو فيه الآن بسبب صاحبه؟ هذا احتمال وارد ولا يمكنني غض الطرف عنه، لقد علمني أبي ألا أتخلى عن شخص استنجد بي ما دمت قادرة على مساعدته، لكن كيف أصل إليه وأسأله عما يريده مني؟ عليَّ أن أستمر في البحث وسأجده بإذن الله.

لاحظت أمي الإرهاق الذي كان يغطي وجهي فسألتني عن سببه، أخبرتها أن الانقطاعات المستمرة في الكهرباء هي السبب في عدم أخذي قدرًا كافيًا من النوم ليلاً، لم أرد أن أقلقها عليَّ وأخبرها بأمر الكوابيس التي تزورني كل ليلة؛ فصحتها الجسدية لا تسمح لها بتلقي أي خبر مقلق أو مخيف كما أوصاني الطبيب بذلك حتى لا تصاب بنوبة قلبية أخرى، ابتسمت لي وقالت:

- أعلم أن مرهقة بسبب عمل البيت والعمل في الكلية وتريدين إخفاء الأمر عني حتى لا أطلب منك التوقف عن الذهاب إلى العمل أو أن أقوم بمساعدتك في أعمال البيت.

- الأمر ليس كذلك يا أمي صدقيني، أنا سعيدة بما أقوم به ولا أشعر بأي تعب.

- جبرك الله يا ابنتي! إني أدعو لك في كل صلاة بأن يرزقك زوجًا يجعلك تعيشين حياة هانئة لا يشوبها أي حزن أو تعب.

- لا حرمني الله منك يا حبيبتي!

- ولا منك يا صغيرتي.

واصلت بحثي عنه في كل يوم بعد انتهائي من عملي، وفي صباح الاثنين أخبرني الدكتور ربيع بأن رآه في كلية الآداب هذا اليوم؛ لأنه كانت له محاضرة هناك، فرحت كثيرًا وعددت ساعات النهار التي بدت لي بطيئة بدرجة لا تتصور حتى بلغت الساعة الواحدة، شعرت بشيء من الترقب والتوجس وأنا أقطع الطريق بين كلية العلوم وكلية الآداب، لم أبحث عنه طويلاً إذ لمحته من بعيد يجلس على أحد كراسي الباحة فاتجهت إليه مباشرة، ازدادت ضربت قلبي حتى خيَّل إليَّ أني أسمعها وأنا أتجه إليه.

(26)

ميمون

عندما سمعت صوت ذلك الرجل الغريب شعرت بالدوار من كثرة الخوف، ألقيت نظرة على مبارك فوجدت أن حاله أحسن من حالي أو هكذا خيَّل لي، سألنا عن سبب تواجدنا في ذلك المكان، حاولت الكلام وأخباره بأننا لا ننوي الشر للعالم الذي نقصده ولكن عجزت عن ذلك بسبب التصاق لساني بسقف فمي، دعوت الله في سري أن يتمكن مبارك من الحديث وينقذنا من هذا المأزق، أعاد السؤال مرة أخرى وهو يقترب منا ويرفع سلاحه في وجهينا، لاحظت أن الخوف بدا بالاختفاء من وجه مبارك وسمعته ينطق جملة واحدة فقط:

- رُوحان لا يُخشى جانبنا.

خفض السلاح واقترب منا أكثر، نظر إلى عيوننا فلما استوثق من صدقنا رافقنا إلى بقية زملائه المرابطين على حدود عالم البشر، كانت هيئاتهم لا تختلف عن هيئة الجندي الذي رأيناه أولاً، انتظرنا حتى شروق الشمس الذي بدا آسرًا في ذلك المكان كأنما الألوان تنسكب منها، رويت عينيَّ من منظرها ثم

لحقت بمبارك الذي يستعد لقطع الخط الفاصل بين العالمين، أمسكت بيده ومشينا معًا في ذلك السراب الذي أصابني بألم شديد في جميع جسدي.

فتحت عينيَّ فوجدت مبارك مستلقيًا بجواري وملامحه غريبة بدرجة كبيرة، أيقظته فرأيت أنه بدأ بالانكماش من الشمس، سألته عما به فطلب مني أن أسارع بإحضار ماء من عالمنا ليشربه حتى ينمو له جسد يتحمل بيئتنا، تلفت حولي فوجدت أنَّا على مقربة من حديقة كبير التجار التي أعمل فيها فهرعت إليها بأقصى سرعة وملأت إبريقًا من الساقية ثم عدت إليه، حاول حمل الإبريق فلم تسعفه يداه، ساعدته حتى تمكن من شرب عدة رشفة ثم دفع الإبريق عن فمه، بقيت أنظر إليه وهو يصرخ بجواري من شدة الألم، تشنج قليلاً قبل أن يسكن عن الحركة حتى اعتقدت أنه فارق الحياة، اقتربت منه فوجدت العروق تبرز في جسمه الذي بدأ بالانتفاخ قليلاً، فتح عينه ونظر إليَّ ثم قال:

- دعنا ننطلق إلى مهمتنا.

- إلى أين؟

- أريد الالتقاء بأبيك ثم نذهب إلى حديقة كبير التجار ننتظره فيها.

لم أدرَ لما أراد أن يلتقي بأبي لكني أثق بأنه سيقدر على مساعدتي، غير أني لم أعد أدري هل مشاعر سلافة حقيقة

وتحبني كما أخبرتني أم أن كلام عماد صحيح وكانت تخدعني، سيتضح كل شيء وسأكتشف الأمر.

لم يسبق لي أن سمعت أحدًا يتحدث عني بهذه الطريقة أمام أبي أو أمام أي شخص آخر، كان مبارك يتحدث عن مزايًا رآها فيَّ أنا شخصيًا لم أكن أدرك وجودها، وأخبره ألا يتعامل معي كأني سلعة يحق له أن يبيعني مقابل حفنة من مال قدمها إليه عماد، رأيت التأثر في وجه أبي من كلامه ويكاد أن يبكي من كمية الثناء الذي قدمه عني، سمعت أبي يتحدث لأول مرة منذ أن جلسنا معه:

-لم أكن أرَ أي شيء في ميمون مما كنت تقول، ورأيت أن عرض عماد لي هو الفرصة الوحيدة التي ستمكنني من الاستفادة الحقيقية من ابني، حتى المال الذي كان يرسله لنا من عمله لنقتات منه كنت لا أراه شيئًا، لكن أما والله بعد كلامك هذا؛ فقد أحسست بأني أمتلك كنزًا عظيمًا لذا لن أفرط به أبدًا.

بكيت حينها كما لم أبكِ من قبل، فضمني أبي إلى صدره وأعتذر مني على المعاملة الجافية التي كان يعاملني بها هو أمي، كنت بين يديه كالطفل الرضيع وعندما ابتعدت عنه وجدت أن مبارك لم يعد موجودًا، سألته عنه فأخبرني أنه ينتظرني في الخارج، خرجت إليه فابتسم لي وسألني عما إذا كنت مستعدًا للوجهة القادمة، فأخبرته بأني على أتم الاستعداد وانضممت إليه.

وصلنا إلى الحديقة بعد الظهر تقريبًا فأخبرني أنه يشعر بالجوع، فقلت له بأني سأذيقه ألذ طعام يمكن أن يتذوقه على الإطلاق، ذهبت إلى كوخي الذي يقع في مقدمة الحديقة وصنعت له أشهر أكلة في عالمنا وهي تعتمد في كل مكوناتها على الخضروات مضافًا إليها زيت الزيتون مع بعض البهارات، يقدم بجوارها خبزًا رقيقًا ودجاجًا مشويًا، ذهبت إليه بالطعام فوجدته منهمكًا بالنقش في ورقة بيضاء وضعها على الأرض، تنحنحت حتى ينتبه لحضوري فرفع رأسه بابتسامة وأخبرني بأنه يعمل على لوحة سيمنحها لكبير التجار حتى يقبل بزواجي من سلافة؛ لأن الكتاب الذي عثر عليه علم منه أشياء كثيرة عن عالمنا والعوالم الأخرى، أخبره الكتاب أن كبار التجار في كل عالم أشخاص يقدسون الفن والجمال والأدب بدرجة كبيرة، شكرته على الجهد الكبير الذي يبذله لمساعدتي وطلبت منه أن ينضم إليَّ لأن الطعام أصبح جاهزًا.

تناولنا الطعام وأخبرته بأني تعلمت كتابة الشعر، فقال لي إن الشعر سيبدد أي ذرة تردد يمكن أن تصيب كبير التجار تجاه زواجي بابنته، وأضاف بأن عليه إكمال اللوحة قبل العصر حتى لا يتأخر في تقديمها له، أومأت برأسي موافقًا ومنحته لحظات من السكون والخلوة، ذهبت إلى مكاني أمام باب الحديقة ويوجد في عقلي سؤال واحد يتكرر، هل سلافة تحبني كما أحبها وترغب بالارتباط بي أم أن جميع ما مر بي معها هو خداع وزيف؟ بقيت أحاول البحث عن إجابة لهذا السؤال ساعتين كاملتين حتى

سمعت صوت مبارك القريب مني يخبرني بأنه انتهى من إكمال اللوحة وأسماها لوحة الزواج.

أحس بخوفي من رد فعل كبير التجار عندما نحدثه في أمر طلب يد ابنته فطمأنني بأن الأمور ستجري على أحسن ما يكون، أخبرته بأن خوفي ليس من رد فعل كبير التجار وإنما من رد فعل سلافة تجاه الأمر؛ لأن كلام عماد عبث برأسي وجعلني أشك في حقيقة حبها لي، طلب مني أن أتخلص من هذا الخوف لأنه لا مبرر له لاسيما وأن من أخبرني بأنها لا تحبني هو عماد الذي يتمنى التخلص مني، فقلت له إن محق فيما يقول وعليَّ أن أثق بحبي لسلافة وحبها لي، طلب مني أن أسمعه بعض ما كتبه فيها فقلت:

سلافة؛ والسلافُ لها التذاذُ ** لها ما بين أضلاعي نفاذُ

ألوذ بطرفها إن تهت يومًا ** وقبلي معشرٌ بالحب لاذوا

ولي قلبٌ رقيقٌ ذاب فيها ** كما قد ذاب في النار الفُلاذُ

انتهيت من إنشادي للشعر مع رؤيتي لغبار يتصاعد إلى السماء من جهة المدينة فنهضت من مكاني لأتبين سببه، رأيت سيارة كبير التجار تقترب من الحديقة فاستغربت حضوره المبكر هذا الأسبوع؛ ففي العادة يأتي بعد صلاة العصر أي بعد ساعة تقريبًا من الآن، وصل إلى مكان وقوفي أمام الباب فاستغرب الشاب الذي يقف بجواري، بقي ينظر إليه لبرهة بصمت ثم نقل بصره إليَّ وسألني عنه فأخبرته بأنه صديقي ونريد أن نتحدث معه

في أمر يخصني، قال إنه سيتفرغ لنا بعد أن ننتهي من صلاة العصر.

دخل إلى الحديقة وبعد لحظات سمعه يناديني بصوت مرتفع وكأنه رأى شيئًا خطيرًا بالداخل، نظرت إلى مبارك وأنا أستعد للدخول فوجدته يبتسم وطلب مني ألا أدخل بسرعة، لم أفهم سبب طلبه فأخبرني أن أنتظر قليلاً وسأعرف كل شيء، دخلنا إلى كبير التجار الذي لم أعد أسمع صوته وعندما اقتربنا من مكان جلوسه لم أصدق ما رأيت، التفت نحو مبارك فهمس لي:

-ألم أخبرك بأن تنتظر؟ ها أنت ترى النتيجة بأم عينك.

(27)

سلافة

تفاجأت باتصال هاتفي وردني من أبي بعد صلاة العصر، أجتبه فأخبرني أنه يحاول الوصول إلى أمي منذ مدة لكنها لا تجيب على جوالها، سألته إذا كان بإمكانه إخباري بما يريد وسأفعله له، طلب مني أن أبلغ جميع من في البيت ليستعدوا لاستقبال ضيف عظيم سيتفضل بالنزول في دارنا، حاولت أن أستفهم منه عن الضيف لكنه لم يخبرني بشيء غير ذلك وطلب مني ألا أغادر غرفة نومي حتى يأتيني هو بنفسه ويخرج برفقتي.

أصابني فضول شديد من كلام أبي لي فلم يسبق له أن تحدث معي بهذه الطريقة الغريبة، ناديت على أحد الخدم وطلبت منه أن يبلغ أمي بما أراد أبي فهز رأسه وانصرف، وبعد لحظات أتى أمي إلى الغرفة وسألتني عن الأمر فأخبرتها بكل ما قاله أبي، غادرت غرفتي لتتواصل مع أبي وتعرف التفاصيل التي لم تعثر عليها عندي، انتظرت نصف ساعة حتى سمعت صوت سيارة بالخارج، وقفت في النافذة فشاهدت أبي أثناء خروجه من السيارة برفقة ميمون ورجل غريب الملامح والهيئة، لا يبدو من

مظهره أنه من بلادنا؛ فهذا الملابس التي يرتديه ليست مما يلبس هنا.

ذرعت الغرفة جيئة وذهابًا عندما طال انتظاري ولم يأتني أحد من الخارج، أردت معرفة ما يحدث في بيتنا، من هذا الضيف الذي جعلني أبي لا أغادر غرفتي بسببه؟ ولماذا كان ميمون برفقتهما؟ الكثير من الأسئلة وجدت رأسي تربة خصبة للنمو، فكرت أكثر من مرة بالخروج وسؤال أي أحد عما يحدث لعل فضولي يهدأ قليلاً، لكني خشيت أن يغضب أبي.

طرق باب غرفتي فوثبت من مكان لأفتحه فقد شممت رائحة الحرية في تلك اللحظة، دخل أبي وعلى وجهه ابتسامة دافئة وطلب مني أن أجلس ليحدثني في أمر يريد رأيي فيه، جلست وأنا أنظر إلى شفتيه بكل ترقب وشوق، قال لي:

- لقد طلبك ميمون للزواج به، وأنتِ تعلمين رأيي به جيدًا منذ مدة بعيدة فما رأيك يا ابنتي؟

لم أدرك تمامًا ما قاله لي وبقيت أنظر إليه بلا فهم، وضع كفه على رأسي وأعاد سؤاله؛ فانتبهت إلى أنه ينتظر جوابًا مني فاستحييت وخفضت رأسي، سألني سؤالاً آخرًا:

- هل أعد صمتك موافقة؟

- أنتَ أعلم بما هو خير لي.

- على بركة الله إذن!

قبلني وغادر الغرفة، شعرت كأنما نبت لي جناحان وأرغب بالطيران من الفرحة، أخيرًا قرر ميمون أن نجتمع في بيت واحد، لقد كنت واثقة بأنه سيفعلها وأن ما نقله لي عماد عن رغبته في الارتباط بابنة خاله ما هي إلا أكاذيب أراد منها أن يصرف قلبي عنه ويجعلني أفكر بالزواج منه هو، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ويتيسر الحلال.

أتت أمي إلى غرفتي تزغرد وباركت لي، أخبرتها بأني توقعت معارضتها لزواجي من ميمون لأنه من طبقة اجتماعية أقل منا، فأجابتني بأن قيمة المرء ليس بما يولد عليه وإنما بما يسعى إليه، وأخلاق ميمون وعلمه يشفعان له بأن يكون في طبقة فوقنا، ثم قالت لي بأنها تحررت من تفكيرها القديم بفضل الله ثم بتعلمها القراءة وإدمانها عليها.

أخبرتني عن الغريب الذي احتفى أبي به بأنه رسَّام عظيم وقد أبدع لوحة صباح هذا اليوم في حديقة أبي التي يحبها كثيرًا وفاجأه بها عند دخوله إلى الحديقة، قالت لي إنه صاحب ميمون وحضر من أجل أن يرافقه في هذه الخطوة المهمة من حياته، سألتها عن عائلة ميمون فقالت لي بأن أباه وصل قبل قليل وهو يشارك الجميع الجلوس في غرفة الضيافة.

اتفقوا على تحديد يوم الأحد موعدًا للزواج فاستغربت استعجالهم فأخبروني أن السبب في اختيارهم لهذا اليوم القريب من أجل الغريب الذي اسمه مبارك فهو يريد أن يعود إلى بلاده ولا يستطيع المغادرة قبل أن يشارك صاحبه فرحته، سألت أمي عما

إذا كان عماد قد علم بأمر الزواج لأني أخشى أن يرتكب حماقة تفسد كل شيء، قالت لي بأن قد فكَّر أن يتسبب في إفساد كل شيء لكن عندما أتى ورأى صاحب ميمون قذف في قلبه الرعب واصفر وجهه خاصة عندما حدَّق الغريب إلى عينيه.

مضت الأيام كلمح البصر وأتى اليوم المرتقب، زينتني أمي بنفسها وهي أمهر من تضع زينة في كل البلاد، تفننت في جعلي أميرة بحق، اختارت لي ثوبًا بنفسجيًا مطرزًا بفراشات فضية على الكتفين، أما شعري فقد جعلته منسدلاً على ظهري وعقدت ضفيرتين صغيرتين عن جانبي وجهي ووصلتهما من الخلف لتكونا كحزام للتسريحة، أما طرافي فقد غطتهن بنقوش الحناء التي قطفت من الوادي الأخضر خصيصًا من أجلي، نظرت إلى المرآة فلم أصدق ما رأت عيني! هل حقًا هذه أنا؟ هل أنا بهذا الجمال أم إني أتخيل؟ طبعت أمي قبلة على خدي وطلبت مني أن أمشي معها إلى أبي الذي ينتظر أمام غرفتي من الخارج، خرجت من الباب فرأيته ينظر نحوي بكل عطف ودفء والدموع توشك على مغادرة محجريه، خطوت نحوه ثلاث خطوات فضمني إلى صدره وهمس لي:

-إني قد أوصيت ميمون عليك، وإني أوصيك عليه الآن فكوني له كما تحبين أن يكون لك، ولا ترفعي صوتك في حضرته فإن الصوت المرتفع يضيِّق صدر الرجل ويقلل من قيمة المرأة، أحسني التبعل له واتقي الله فيه.

هززت رأسي إيجابًا فقبلني ما بين عيني ثم رافقني إلى السيارة حيث كان ميمون بانتظاري بجوار أبيه وأمه، باركا لي ثم ركبت معه وتوجهنا إلى بيتنا، لم أسمع طوال طريقنا إلى البيت سوى (الحمد لله) التي لم يفتر لسان ميمون عن تكرارها وعندما وصلنا أمسك بكفي ودخلنا بيتنا وأغلق الباب، كان الظلام يملأ المكان فاستغربت الأمر لكني فضلت ألا أستبق الأحداث فقد تكون هناك مفاجأة وأنا أحب المفاجآت كثيرًا، أشعلت الأنوار فرأيت الزينة تغطي الجدران، نظرت إلى حيث يقف ميمون فاقترب مني وقال:

-أعلم بأنك نسيت يوم ميلادك، لكني منذ أن عرفته لم يغب عن بالي لحظة واحدة، أردت أن أمنحك هدية مميزة في هذا اليوم فلم أجد سوى أن أمنحك هذه القبلة على خدك.

احمرَّ وجهي من الخجل فلم أتوقع أن يقبلني بهذه السرعة، لقد نسيت أن اليوم هو الخامس عشر من ديسمبر، ما أجمل الهدية التي حصلت عليها هذه المرة! أضاف قائلاً:

- عزيزتي فراشة ديسمبر، أريد أن أخبرك أني كنت أحب اللون البنفسجي كثيرًا، وأعده أجمل الألوان على الإطلاق، لكن عندما رأيتك ترتدينه أصبح الأمر أكثر من مجرد حب، أكثر من مجرد افتتان بسيط، أصبح أمرًا يستحيل وصفه أو التعبير عنه.

- ميمون!

- ما أجمل اسمي من فيك، اجعليني أرتوي من صوتك، حدثيني بكل ما في نفسك.

- أحبك.

- وأنا أحبك كثيرًا.

- الحمد لله الذي جمعنا، ولم يجعل أرواحنا تتفحم من نار الفراق.

- الحمد لله!

تحدثنا كثيرًا وسألته عن صاحبه فأخبرني أنه أحد أهم أسباب اجتماعنا اليوم، وأنه قد غادر إلى بلاده قبل مجيئه لأخذي بلحظات، كان يتحدث عنه بكل امتنان وحب، لا ألومه في الامتنان لشخص مثل مبارك؛ فقد قطع مسافة طويلة كما علمت منه من أجل أن يساعد ميمون في الزواج بي، إنه صاحب عظيم بحق! لم يخطئ أبي عندما احتفى به كل هذا الاحتفاء، أراني اللوحة التي رسمها مبارك من أجلنا وأخبرني أن اسمها لوحة الزواج، صحيح أني لم أفهم معظم تفاصيلها لكنها لامست قلبي، وشعرت بالانجذاب نحوها.

(28)

مبارك

سألني ميمون عن الطريقة التي سأعود بها إلى عالم البشر عندما طلبت منه أن يعيدني إلى الحديقة بعد أن شهدت عقد قرانه؛ فأخرجت عبوة ماء من حقيبة ظهري وأخبرته أن الكتاب يقول أن عودتي إلى عالمي مرهونة بعودة جسدي البشري وقد أحضرت عبوة الماء هذه من أجل هذا الأمر، رفعت الماء إلى فمي فطلب مني أن أتوقف ليودعني، قلت له إني لا أحب الوداع وقد نلتقي في يوم ما، ابتسم لي وأخبرني بأنه سينتظر هذا ليوم بفارغ الصبر.

رفعت الماء إلى فمي مرة أخرى فأخبرني أن أمه رأت في منامها الثلاث الليالي الماضية أني أجد فتاة في عالم البشر تمنحني السعادة والأمان، ضحكت من كلامه وأخبرته بأنها كانت مزحة جيدة؛ فأقسم لي على ذلك وقال:

-استعد ليوم جديد في حياتك تولد فيه مرة أخرى.

- هل سأعود طفلاً من جديد؟

- جميعنا أطفال بحاجة إلى دفء الأم يا صديقي؛ فهي نجدتنا عندما نشعر أن الخوف والألم يلاحقاننا.

ضحكت كثيرًا من جملته الأخيرة وأخبرته ألا يؤخرني عن رحلتي حتى لا أتسبب بتأخيره عن زوجته فضحك ولوَّح لي بيده مودعًا، شربت الماء فشعرت بدوار كأن الأرض تهتز تحتي، أخذت نفسًا عميقًا عندما شعرت بالاختناق وحاولت فتح أزرار القميص الذي أرتديه، ازداد الدوار فأغمضت عينيَّ، شعرت ببرودة تملأ الجو فارتعش جسمي لبعض الوقت.

فتحت عينيَّ فوجدتني أقف أمام القاعة عشرين في كلية الآداب، نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى السادسة ونصف، أخذت نفسًا عميقًا والابتسامة تكسو وجهي واتجهت إلى السكن الطلابي فوجدت أن الحركة قد بدأت تدب فيه، دخلت الغرفة فألقيت التحية عليهم، رحبوا بي وأخذ عارف يستجوبني عن غيابي طوال الأسبوع الماضي فأخبرته أني كنت في رحلة عمل وقد عدت قبل لحظات.

جلست على أحد كراسي الباحة تحت الأشجار بعد يوم مليء بالمحاضرات المملة التي لم تعد تثير شيئًا من حماستي، أغمضت عينيَّ وتذكرت السعادة التي كانت تملأ وجه ميمون وهو يصافح يد حموه أثناء عقد القران، فرحت له كثيرًا لتمكنه من الاجتماع بالفتاة التي اختارها قلبه وأيده على اختيارها عقله،

قطع عليَّ هذا السكون الشاعري الذي كنت فيه صوت فتاة تقف أمامي قائلة:

- أخيرًا عثرت عليك!

- مَن أنتِ؟ وماذا تريدين مني؟

- لقد كنت تأتيني في المنام لسبع ليالٍ متوالية تخبرني بأنك بحاجة إليَّ.

نظرت إلى عينيها بابتسامة باهتة وقلت:

- هي أنتِ إذن؟!

- لم أفهم!

واصلت التبسم وأخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- ما اسمك؟

- نجود.

- لقد تأكدت الآن بأنك الصفحة القادمة في حياتي؛ لذا سأسلك عن مكان بيت أهلك، هل يمكنك أن تسدي إليَّ هذا المعروف؟

بقيت تنظر إليَّ بلا فهم حتى توقفت عن التبسم وأعدت إليها طلبي وبينت لها سببه فهزت رأسها إيجابًا.

تمت بتاريخ 3 أغسطس 2023م.

قَراشَةُ ديسَمبر

جلست بجوار الدرج فسمعت صوت أنين مكتوم قادمًا من الأعلى فابتسمت وقلت لنفسي: لا بد أني أتوهم، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتي عندما واصلت سماع الأنين نفسه وحل مكانها خوف لم أعهد مثله من قبل، أخذت نفسًا عميقًا وتمالكت نفسي ثم صعدت...

مُبارك برك بن جوهر

أريب للنشر والتوزيع
Areeb Publishing & Distribution